نماذج [1] من الدعاة الصالحين

الحلقة الأولى

الشيخ أبو بكر الجزائري

بسم الله، والحمد لله .. والصلاة والسلام على رسول الله، وآله وصحبه ومن والاه.

وبعد: فإن دعاة الإسلام في كل زمان ومكان هم دعاة الحق والخير الناهون عن الباطل والشر.

الإسلام : ونعني بالإسلام : دين الله الذي جاءت به كل الرسل عليهم السلام.

دعاة الإسلام : نعني بدعاة الإسلام : أولئك المصطفين الأخيار من أنبياء الله تعالى ورسله نوحاً عليه السلام فمن بعده إلى خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم، وحوارييهم وأنصارهم ممن يتبعون سنتهم ويهدون بهديهم.

الحق : ونعني بالحق : الإيمان بالله تعالى وعبادته وحده بما شرع لعباده أن يعبدوه به من كل أعمال القلوب، والألسن وسائر الجوارح، ليعدهم به للكمال والسعادة في الحياتين.

الخير : ونعني بالخير كل الفضائل النفسية والخلقية مما ينجم عنه طيبة النفس وطمأنينتها، وهدوء الخاطر، وصلاح البال، مما تتحقق به سعادة الإنسان في هذه الحياة، ويهيئ به للسعادة في الدار الآخرة.

الباطل : ونعني بالباطل : الإيمان بالطاغوت وعبادته دون الله تعالى، أو مع عبادته عز وجل من كل ألوان الكفر وضروب الشرك، وما يستتبع ذلك من البدع والأهواء المنافية للشرع والعقل معاً.

الشر : ونعني بالشر كل الرذائل والخطايا مما يفقد الإنسان طهارة نفسه، وفضائلها، ويحرمه السعادة في الدنيا والآخرة.

وهذه أمثلة حق صادقة، ونماذج حية ناطقة تمثل مواقف شتى للدعاة الصالحين، وهم يدعون إلى الحق والخير، وينهون عن الباطل والشر ولنبتدئ بأول أولئك الرسل نوح عليه السلام فنستعرض جوانب من حياة هذا الداعية الكبير، ليكون نموذجاً صالحاً للداعية المسلم اليوم يأخذ به، وينسج على منواله فيكمل في دعوته، ويشرف بها، ويبلغ الغاية المنشودة عليها، وهي هداية وإصلاح من أراد الله تعالى هدايتهم وإصلاحهم من الناس.

أ – نوح عليه السلام :

فمن هو نوح عليه السلام؟ وما هي الجوانب الهامة في حياته الدعوية التي يمكن للداعية المسلم

---

[1] النماذج : جمع نموذج. والنموذج مثله وقال صاحب القاموس في الأخير لحن ومعناه: المثال " معرب ". والجمع: نموذجات وأنموذجات. وقول صاحب القاموس لحن خطأ فيه كثيرون. وقالوا: إنها دعوة لا تصح وسمى الزمخشري: الأنموذج.

الإستفادة منها في مجال الدعوة الإسلامية ؟

إن نوحاً هو عبد الله ورسوله نوح بن لامك بن متوسلخ بن اخنوخ (إدريس) بن برد بن مَهْلاييل بن قيْنَس بن أنوش بن شيث بن آدم عليه السلام، هكذا يقول النسابون و يقولون: إن بينه وبين آدم عشرة قرون أي ألف سنة. هذا هو نوح عليه السلام.

وأما الجوانب الهامة في حياته الدعوية فهي تتمثل في الأرقام التالية:

(1) طول صبره .

(2) صدق لهجته .

(3) تلوينه أسلوب دعوته .

(4) شجاعته وعظم توكله على ربه عز وجل .

(5) صدق لجأه إلى ربه سبحانه وتعالى.

1- **صبره الطويل** : وعن صبره الطويل نقول: إن نوحاً عليه السلام قد قضى في الدعوة إلى ربه تعالى من أجل أن يؤمن به، ويعبده وحده دون سواه، قضى دهراً طويلاً، دعا فيه قومه إلى عبادة الله وحده، وإلى تقواه، وإلى طاعته هو بوصفه رسول الله والمبلغ عنه فقال: **{قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُون يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً}**.

ولاقى في ذلك من الأذى ما لم يلقه كثير من الداعين إلى الله تعالى، فقد كذبه قومه ووصفوه بالجنون، ووصفوا اتباعه من المؤمنين با لإسترذال، ولم يعترفوا لهم بأي فضل عليهم. فقالوا: **{مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا [2] بَادِيَ الرَّأْيِ [3] وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ}**. ولم يقفوا عند حد التكذيب والعيب بل تجاوزه إلى التهديد بالموت، فقالوا: **{لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ}** والرجم عندهم بالحجارة وسيلة من وسائل الإعدام، كرجم الزناة المحصنين في الإسلام.

ولما أنذرهم عاقبة شركهم وتكذيبهم وإجرامهم، وخوفهم بعذاب الله تعالى سخروا منه، وطالبوه بالعذاب متحديين له في ذلك. فقالوا: **{يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ}**.

قضى نوح عليه السلام في دعوته دهراً طويلاً فلم يكل خلاله ولم يمل حتى أوفى على تسعمائة

---

2 الأراذل : جمع الأرذل أي الأكثر رذالة، وهو المحتقر الذي لا فضيلة له.

3 بادئ : أي ابتداء من غير تفكر فيك، ولو فكروا فيك لما اتبعوك.

وخمسين عاماً. وبعدها رفع شكواه إلى ربه عز وجل فقال: {قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}. وقال: {أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ}.

وبعد أن سبر غور القوم. حلل نفسياتهم، وعرف مركب طباعهم، وأيقن أنهم لا يؤمنون، بناء على وحي الله تعالى له بذلك: {أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلا مَنْ قَدْ آمَنَ} .. وعلى ما شاهده من حال أجيالهم المتلاحقة وهم يتواصون بالكفر به وبتكذيبه في دعوته. دعا عليهم قائلاً: {رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلا فَاجِراً كَفَّاراً} . ولم يكن هذا عن قلة صبر منه عليه السلام، وإنما كان خوفاً منه على الجماعة المؤمنة أن يفتنها أولئك الكفار الفجار فيحولوها عن معتقداتها، ويضلوها عن سبيل ربها {إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ} فلذا دعا ربه بهلاك الكافرين وتدميرهم قطعاً لدابر الكفر والكافرين وإنهاء لفتنة الشرك في الأرض والمشركين.

2- صدق لهجته :

وعن صدق لهجته نقول: إنه كان عليه السلام صادق اللهجة، واضح البيان وافي النصيحة، ظهر ذلك من أقواله وهو يخاطب قومه في شتى المواقف، والعديد من المجالات. فلنستمع إليه وهو يخاطب قومه آمراً إياهم بعبادة الله وحده، إذ لا إله لهم غيره، معللاً لهم أمره بعبادة الله وحده بخوفه عليهم عذاب يوم عظيم. فيقول: {يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ}.

ولما رد عليه ملأهم قائلين: {إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ} ، قال: {قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ. أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ }. وقال في بداية دعوته وهو يبلغها قومه لأول مرة: {أَلا تَتَّقُونَ. إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ. وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ }. ولما ردوا عليه دعوته قائلين: {قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ}؟. رد عليهم قائلاً: {وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ، وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ، إِنْ أَنَا إِلا نَذِيرٌ مُبِينٌ}.

ومن خلال هذا الحوار القصير في هذه الجمل التي جاءت في القرآن الكريم وسمعناها عنه عليه السلام وهو يدعو إلى الإيمان بالله وعبادته وحده دون من سواه تظهر الحقيقة التي لقينا إليها وقررناها وهي صدق لهجته عليه السلام في دعوته، وصدق لهجته [4] في الدعوة عامل من عوامل نجاحها، والبلوغ بها إلى غاياتها.

3- تلوينه أسلوب دعوته :

---

4 اللهجة : اللسان، ولغة الإنسان التي جبل عليها واعتادها. يقال فلان فصيح اللهجة، وصادق اللهجة. (منجد).

وعن تلوينه أسلوب دعوته نقول: إن نوحاً عليه السلام لم يدخر وسعاً، ولم يدخر يأل جهداً في سبيل إبلاغ دعوته، ونشرها بين قومه، حتى ملوا ذلك منه، وضجروا له فكانوا يجعلون أصابعهم في آذانهم حتى لا يسمعوا ما يقول لهم، وما يدعوهم إليه من عبادة الله تعالى وحده وترك عبادة ما سواه، ويستغشون ثيابهم فيغطون بها رؤوسهم حتى لا يروه ولا ينظروا إليه من شدة كراهيتهم له وبغضهم إياه.

ولم يمنعه ذلك من مواصلة دعوته فيهم متذرعاً بكل الوسائل الممكنة، فلم يترك باباً لإبلاغ دعوته إلا طرقه، ولا سبيلاً إلا سلكها وكان لحكمته في دعوته يراعي حال مدعويه، فيسر القول إلى بعضهم، ويجهر به إلى بعض آخر بحسب ما تتطلبه حال الأشخاص المدعوين، إذ من الناس من يكون ذا أنفة وحسية وكبر لا يرضى أن يجهر له بالقول، أو يدعي إلى الحق والخير، أو التوبة وا لإستغفار علانية بين الناس، ومنهم السهل الطبع اللين العريكة، الذي لا يشمئز من دعوته جهراً، ولا ينقبض أو يغضب إذا دعي إلى الحق والخير بين الناس.

وهذا من نوح عليه السلام تلوين لدعوته، وبحث لها عن كل ما يمكنها من الذيوع وا لإنتشار، ثم الفوز والإنتصار، ولنستمع إليه وهو يعرض شكاته ويرفعها إلى ربه تعالى ليعذره وينصره: **{قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلا فِرَاراً وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً[5] وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً}**. فمن خلال هذه الشكاة التي رفعها نوح إلى ربه تتجلى حقيقة دعوة نوح عليه السلام وأنه كان ذا بصيرة في دعوته وعلم بها، يلون أساليبها، ويتحين الفرص لإبلاغها وإنجاحها يعتمد في دعوته على أسلوب الترغيب طوراً والترهيب طوراً آخر، ليأخذ النفوس بالحكمة ويحذو بها إلى محيط الدعوة بالرغبة أو الرهبة، هذا شأن الداعية الحكيم في دعوته العليم بها البصير بمتطلبات نجاحها.

4- شجاعته وعظم توكله:

وعن شجاعته وعظم توكله أقول: إن نوحاً عليه السلام كأن ذا شجاعة عظيمة شأنه شأن سائر الأنبياء والمرسلين، وإن تفاوتوا في ذلك قوة وضعفاً. أما توكله على ربه تعالى فقد ك ان مضرب المثل بحق، وتتجلى هاتان الصفتان: قوة الشجاعة، وعظم التوكل في الموقف التالي: جاء من سورة يونس عليه السلام قوله اللّه تعالى **{وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ**

---

5 ترجون بمعنى تأملون من الله تعالى وقاراً لكم إن أنتم آمنتم به وعبدتموه وحده دون سواه. أو ترجون بمعنى تعتقدون أي ما لكم تعتقدون وقار الله وتعظيمه بأن تعبدوه وحده وتتركوا عبادة غيره وهو قد خلقكم أطواراً ... الخ .

اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنْظِرُونِ}.

وبتدبر هذه الآية الكريمة على النحو التالي:

نوح عليه السلام يشعر بأن قومه قد استثقلوا ظله وسئموا الحياة معه، وما أصبحوا لا يطيقون سماع كلامه، ولا رؤية وجهه كل ذلك كأن نتيجة لدعوته إياهم إلى عبادة الله تعالى وتقواه، وهم يصرون على الشرك والفسق ولا يريدون تركهما ولا التحول عنهما بحال.

كما يشعر أن قومه يهددونه بالقتل ويتوعدونه به في غير موطن: {قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ}. فيعلمهم في وضوح أنه لا يخاف الموت ولا يرهبه وأنه قد توكل على ربه عز وجل فلذا هو لا يخاف سواه، ولا يعتمد على غيره بحال من الأحوال ويدلل على عدم خوفه من الموت، و على عظم توكله على ربه فيرشدهم إلى طريقة قتله والتخلص منه إن كانوا يعتزمون ذلك حقاً ويريدون هو ويبالغ في التدليل على شجاعته وعظم توكله على ربه، فينبههم إلى أنهم عندما يجمعون أمرهم على قتله ينبغي لهم أن لا يترددوا في ذلك، حتى لا يفشلوا في مهمتهم ولا يكون أمرهم غمة عليهم.

بهذا التدبر للآية يتضح أن نوحاً عليه السلام ك ان من أقوى الناس شجاعة ومن أعظمهم توكلاً على ربه تعالى.

وقوة الشجاعة، وعظم الوثوق في الله والتوكل عليه من أخص صفات الدعاة الصالحين وبدونهما لا يقوى الداعي على تحمل رسالة الدعوة إلى اللّه تعالى، وإبلاغها إلى الناس.

5- صدق لجئه إلى ربه:

وعن صدق نوح في لجئه إلى ربه تعالى نقول: إن نوحاً عليه السلام كان صادق اللجئ إلى اللّه تعالى منيباً إلى ربه مسلماً إليه متوكلاً في كل شأنه عليه يظهر بوضوح في مثل قوله :{إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ }. وفي قوله وقد ازدجره قومه بعد صراع مرير تجاوزت مدته مئات السنين: {أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ}. قال تعالى في الإخبار عن حاله مع قومه في تكذيبهم له، وزجرهم إياه: {كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ}أن انتصر يا ربي، فانتصر الله تعالى له فأنجاه وأغرق أعداءه ولما هدده قومه توعدوه، وقالوا: {لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ} لجأ في صدق إلى ربه يطلب نصرته وأن يخلصه من قومه العتاة الطغاة الفاسقين فقال: {رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ }. كما قال تعالى عنه: {وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ سَلامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ

عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ}.

وأخيراً فنبي الله تعالى نوح عليه السلام اجتمع له من صفات الكمال في الداعية ما كان به أول الدعاة فقد جمع بين طول الصبر، وصدق اللهجة، وكمال البيان، وتلوين الأسلوب مراعاة لحال من يدعوهم بعد معرفته لنفسياته م، وعظم الشجاعة وقوة التوكل وكمال الوثوق، وصدق اللجأ، وهي صفات ما اجتمعت لداع من دعاة الحق والخير، والناهين عن الباطل والشر إلا كان مثالاً يحتذى به وكانت حياته نموذجاً صالحاً يتمثل بها في حياة الدعوات الإصلاحية بين بني الناس.

فعلى أبنائنا النابهين الذين اختاروا لأنفسهم أن يكونوا دعاة حق وخير وأئمة هداية وإصلاح أن يتحلوا أولاً بالصبر واليقين إذ بهما تنال الإمامة في الدين، قال تعالى: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ}.

وثانياً أن يترسموا خطى الدعاة الصالحين وينسجوا على منوالهم وقد قدمنا لهم أصدق نموذج للداعية الصالح عرفته البشرية بعد سيد الدعاة محمد صلى الله عليه وسلم ألا وهو أبو البشر الثاني نوح أحد أولي العزم من الرسل، فليذكروا منه طول صبره، وصدق لهجته، وكمال بيانه، وتلوينه لأسلوب دعوته وعظم شجاعته وقوة توكله وصدق لجئه إلى ربه، فإنهم بذلك يكسبون من صفات الكمال في الدعاة ما يعينهم على أداء مهمتهم وإبلاغ رسالتهم. حقق الله تعالى لهم ذلك.

وسلام على نوح في العالمين وعلى محمد في المرسلين .. والحمد لله رب العالمين.

ب– إبراهيم عليه السلام.

من هو إبراهيم ؟ ..

إنه أبو الأنبياء والضيفان إبراهيم بن آزر (تارخ) بن ناحور بن ساروغ بن راعو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام .

هذا هو إبراهيم في نسبه اسماً وكنية. أما إبراهيم في كمالاته النفسية، فإنه أمة كاملة، وليس فرداً واحداً. كما قال عنه ربه تعالى في كتابه الكريم القرآن العظيم {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَاكِراً لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} .

وذلك لما جمع الله تعالى فيه الكمالات البشرية التي لا يجمع إلا في الأمة من الناس (العدد الكثير) فقد طفحت حياة الخليل بصنوف الإبتلاءات، وضروب البطولات ما أصبح به مثالاً صالحاً، وأسوة حسنة لكل راغب في الكمال البشري يفوز به بين العالمين. هذا وإن المرء ليحار عندما يريد أن يستعرض حياة كريمة شريفة، نادرة في خصائصها فذة في نعومتها وشمائلها كحياة إبراهيم الخليل، عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، إذ تزدحم أمامه جحافل الكمالات الإبراهيمية فلا يدري ماذا يستعرض منها، وقد تشاكلت في

الحسن، وتسامت في الجلال والجمال، وهذه كواكبها في سماء الحياة الإبراهيمية أنها: الدعوة، والحجة، والبلوى، والهجرة، والخلة، والقدرة، والرحمة والأمة وزاد في إشراق هذه الكواكب أن الأرض يومها كانت مقفرة من الحق والخير، مظلمة لا ضوء فيها ولا نور. ساد فيها الظلم وتحكمت في أهلها الأوثان. وانحرفت فيها الفطر البشرية، وتحجرت منها العقول الآدمية، فعبد الناس الأصنام وخنعوا للظلم واستكانوا للطغيان. والآن قد أظلمت سماء الحياة البشرية، وتغشت أرضها، وحل بها ما كان بأرض بابل والكلدانيين من سائر أنواع الكفر والظلم والشر والفساد والطغيان.

فهل لنا أن نستعير لها من كواكب الحياة الإبراهيمية ما تستنير به وتشرق من جديد. ولم لا..؟ وما المانع لنا..؟

وعليه فبسم الله، وعلى بركته نستعرض تلك الصفات الثمانية التي عددناها كواكب زهراً في حياة إبراهيم الخليل، صفة بعد أخرى، وما منها إلا وتمثل جانباً هاماً من حياة إبراهيم المفعمة بجلائل الأعمال وعظائم مثل الكمال، فلنستعرضها عَلناَّ نكتسب من أبي الأنبياء وإمام الموحدين إبراهيم الخليل ما يساعدنا على النهوض بأعباء ما أنيط بنا – بوصفنا مسلمين – من واجب الدعوة إلى الله تعالى ليعبد وحده بما شرع أن يعبد به فيكمل بذلك العابدون في دنياهم ويسعدوا في أخراهم.

1- إبراهيم الدعوة :

عند التأمل لا يرى أن هناك مبالغة في نسبة إبراهيم إلى الدعوة وإضافته إليه في قولنا إبراهيم الدعوة أو في كل ما ننسبه إليه من صفاته الكمالية التي امتاز عليه السلام، وذلك لأن إبراهيم عليه السلام غلبت عليه صفات فأصبحت كل صفة تمثل شخصية مستقلة، وذاتاً متميزة فإبراهيم يمثلها وهي تمثله فقولك دعوة إبراهيم، كقولك إبراهيم الدعوة، سواء بسواء. فعن إبراهيم الدعوة نقول: إن إبراهيم عليه السلام قد أضطلع بأمر الدعوة إلى الله تعالى في سن مبكرة جداً ولعل في قوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ} دلالة واضحة على أنه ابتدأ الدعوة إلى الله في حداثة سنه. ويرجع هذا أيضاً أنه بدأ بدعوته أباه قبل قومه وذلك لكونه في حجره وكفالته.

وفي دعوة إبراهيم أباه إلى عبادة اللّه تعالى وحده، جعل عبادة الأصنام قبل دعوة غيره من أهل بلاده دلالة قوية على رشد إبراهيم وحكمته. فقد أمر نبينا محمد صلى اللّه عليه وسلم أن ينذر عشيرته الأقربين في قوله تعالى:{وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ} فجمعهم ودعاهم كما جاء ذلك مبيناً في سيرته صلى اللّه عليه وسلم حيث ناداهم فعم وخص حتى قال :" يا فاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئت فإني لا أغني عنك من الله شيئاً. أنقذي نفسك من النار " والآيات القرآنية التي عرضت دعوة إبراهيم عليه السلام لأبيه هي آيات سورة مريم عليها السلام فلنوردها ولنقف على مواطن العبرة والهداية منها.

قال تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً , إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً} . ففي نهيه عليه السلام أباه عبادة الأصنام بأسلوب ا لإستفهام الذي هو أخف على النفس من صيغة النهي لا تفعل مظهر من مظاهر الحكمة وفي الدعوة، لأن آزر بحكم أنه والد كبير السن له حق التبجيل ا لإحترام يتنافى معه مخاطبته بصيغة الأمر الدالة على العلو والقهر. وفي وصفة إله آزر الذي يعبده بأنه لا يسمع ولا يبصر، ولا يغني عنه شيئاً متى أراد الله تعالى أن يعذبه إن هو استمر على الكفر به و عبادة غيره. مع أنه إخبار بالواقع الذي لا ينكره آزر عليه لعائن اللّه، إلا أنه أسلوب دعوى عال لا يرقي إليه إلا ذو القدم الراسخ ة في الدعوة، لان آزر كان غافلاً تماماً عن كون آلهته لا تسمع و لا تبصر ولا تضر ولا تنفع، وإنما يعبدها تقليداً لغيره من أهل بلاده، فليسلب إبراهيم عنها أخص صفات الألوهية كان قد أماتها قلبه وهيأه بذلك الإيمان بالله السميع البصير الذي هو على كل شيء قدير.

وقوله له: {يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً} . فإنه عليه السلام تحاشى أن يصم والده بوصمة الجهل التي يأباها الإنسان حتى ولو كان جاهلاً حقاً كما أنه لم يصف نفسه بالعلم تمدحاً وتعالياً على والده، وإنما أخبره أنه جاءه من العلم ما لم يأته هو وأو أتاه ما أتي إبراهيم من العلم لما طلب إليه أن يقوده الهدى، ولكان هو القائد له ولنفسه أي ضرً وهو أسلوب عظيم لا يشعر معه المدعو بأدنى غضاضة، أو أية إهانة، أو انتقاص كرامة، فلا يتعقد نفسياً، ولا يتحطم شخصياً، ومتى بقيت للمدعو كرامته وشخصيته أمكنه أن يأخذ مع الداعي له ويعطى، وهو طريق الوصول إلى معرفة الحق. وبالتالي إلى الهداية المطلوبة لمن شاءها اللّه تعالى له.

وقوله له: {يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً. يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً}.

فإنه بعد إقناعه والده أن ما يعبده لا يسمع ولا يبصر ومن كان كذلك لا يعبد عقلاً ولا شرعاً مع استمرار آزر على عبادته أعلمه في هذه الجملة الكلامية أنه إنما يعبد الشيطان، ونهاه عن ذلك معللاً له النهي بأن الشيطان كان ومازال للرحمن عز وجل عصياً، وطاعة العاصي تعرض المطيع للعذاب الذي ينال العاصي، إذ طاعة العاصي للسلطان تعتبر معصية للسلطان نفسه وبذا ينالهما جزاء المعصية معاً، ولهذا قال له في إشفاق عليه ورحمة به: يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً، إذ يجمعه وإياه صعيد العذاب، بعد اليم والتوبيخ والعتاب فتتم الولاية بينهما بسبب القرب الذي حصل لهما.

وقوله له: {سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً} . بعد غضب والده عليه وتهديده له بعذاب الرجم بالقول أو الفعل ومطالبته بالبعد عنه وهجرته له دهراً طويلاً. إذ قال له: {أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ

آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً }. أقول إن قوله له سلام عليك سأستغفر لك ربي، لقول من أسد الأقوال لا يقوله إلا من أوتي رباطه الجأش، ورحمة القلب، وهما من ضروريات الداعي الناجح، ولذا كان الخليل إمام الدعوة وقدوتهم في الحياة.

وبعد هذا العرض والسماع لدعوة إبراهيم لأبيه وأقرب الناس إليه نستعرض دعوة إبراهيم وهو يوجهها إلى قومه وأهل بلده لنقف ع لى مظاهر كماله في دعوته العامة بعد الخاصة. ولنطلب ذلك من سورة العنكبوت إذ جاء فيها قول الله تعالى: {وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ. إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ. وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلا الْبَلاغُ الْمُبِينُ}.

ففيٍ هذه الجمل الكلامية التي وجهها إبراهيم عليه السلام إلى قومه الوثن يين، وحكاها عنه القرآن الكريم، لتكون حافزاً كبراً للمنزل عليه نبينا محمد صلى اللّه عليه وسلم على إبلاغ دعوته إلى قومه، وثباته عليها، ائتساء بإبراهيم إمام الموحدين واقتداء به في مجال الدعوة والبلاغ المبين.

كما تكون درساً نافعاً لكفار قريش، ولكل مشركي العرب، إذ يتعلمون من خلالها بطلان الشرك الذي هم عليه، وأحقية التوحيد الذي يدعون إليه.

ففي قوله: يا قوم اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون، إنما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون إفكاً. إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون، وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول إلا البلاغ المبين.

في هذا القول الكريم من مظاهر العلم والحكمة وسلامة التوجيه، وحسن الدعوة ما لا يقادر قدره، الأمر الذي يجعل إبراهيم أحد نماذج الدعاة الصالحين، الذين يؤتسى بهم ويقتدى باتباعهم.

وإن أمعنا النظر وأعملنا الفكر في هذه الكلمات التي ألقاها إبراهيم في قومه دعوة لهم إلى الحق، وإرشاداً لهم إلى سبيله تجلت لنا ينابيع الحكمة، وعناصر العلم الغزير الواسع وأساليب البيان الفتان.

إن في قوله: {يا قوم} بدل (أيها المشركون) من استمالة قلوب القوم، واستهواء نفوسهم ما يجعلهم لا ينفرون من سماع دعوته، والتأمل فيها، لأن القومي عادة لا يريد ما يضرهم أو يسيئ إليهم ولكن يريد لهم ما ينفعهم ويرفعهم.

وفي قوله: {اعْبُدُوا اللَّهَ} تقرير منه بالإيمان بوجود الله تعالى، ونفي للتعطيل الذي هو مذهب الملاحدة الدهريين، لأن أمرهم بطاعة الله تعالى مستلزم للإيمان به عز وجل.

وفي قوله: {واتقوه} بعد أمرهم بعبادة الله تعالى نه ى لهم عن الشرك في عبادته سبحانه وتعالى لأن

التقوى لله تعالى مستلزمة لعدم قطع عبادته ولإفراده تعالى بها، وعدم إشراك غيره فيها، فيكون قوله هذا كقوله الله تعالى في القرآن الكريم من سورة النساء {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً} .

وفي قوله {ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ} ما يجذبهم إلى التعقل والتفكر فيما يدعوهم إليه من الهدي والخير، حيث أشعرهم بأن ما يدعوهم إليه من عبادة الله وتقواه بنفي الشرك عنه، و الإستمرار في عبادته، خير لهم في الحال والمآل من الكفر والشرك لما يثمره الإيمان والطاعة والتوحيد من الكمال النفسي، وا لإستقامة في الحياة وما يستتبع من سعادة الدنيا والآخرة، ولما يعقبه الكفر والشرك والعصيان من آثار سيئه في النفس والسلوك، وما يستلزم ذلك من الردى والشقاء والهلاك في الحياتين.

وفي قوله :{إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ }، دعوة لهم إلى ا لإرتفاع بنفوسهم عن منحدر التقليد والجمود إلى مستوى العلم والتفكير، فإن من يعلم الخير والشر، والحق والباطل ويقدر على التمييز بينهما يدرك أن عاقبة الحق والخير أحمد من عاقبة الباطل والشر وأن عبادة الله وتقواه خير من الكفر والشرك ومعصية الله.

وفي قوله:{تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً} قصر لهم على الحقيقة التي يتجاهلونها وهي أنهم ليسوا على شيء في عبادتهم لأوثانهم، لأن الأوثان من صنيع أيديهم وبذلك لم تكن أبداً أهلاً لأن تعبد مع الله الخالق لكل شيء إنها في الواقع لم تعد أن تكون إفكاً ائتفكوه، وكذباً اختلقوه فلا يصح عقلاً أن تعبد بحال من الأحوال، وهي مفتقرة في وجودها إلى من صنعها، ولو حكم العقل في القضية لحكم بعبادة الصانع، وبطلان عبادة المصنوع.

وفي قوله:{إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ} برهنة منه عليه السلام على بطلان عبادة تلك الأوثان، لأنها لا تملك لعابديها رزقاً، والإله يعبد ويتوسل إليه بالطاعة وشتى القرب ليهب الرزق والخير والبركة والعافية، فإن كان لا يملك ذلك فهو لا يهبه، ولذا فلا حق في عبادته وطاعته وهكذا قرر إبراهيم بطلان آلهة قومه بهذا المنطق من الكلام، لحكمته وعليه السلام.

وفي قوله:{فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ} بناء لصرح التوحيد على أساس بطلان الشرك وتهاويه، فإن الآلهة التي لا تملك الرزق يجب أن ترفض عبادتها، وأن يتجه المفتقرون إلى الرزق إلى الذي يملكه ويعطيه فليعبدوه ليهبهم الرزق، وليشكروا له ذلك ليحفظه عليهم ويزيدهم منه، فإن شكر النعم يحفظ العبد ويستوجب المزيد.

وفي قوله:{إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} تذكير لهم بالمعاد والحياة الآخرة، ليربي في نفوسهم ملكة التقوى لله تعالى ويحي في قلوبهم عقيدة البعث والجزاء التي قد تكون الوثنية أتت عليها وأماتتها في نفوسهم.

وفي قوله:{وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلا الْبَلاغُ الْمُبِينُ} إعلان منه عليه السلام أنه يتكلم من مركز القوة وأنه ليس براغب ولا راهب فهو يقول قولته، وتنفذ دعوته فإن

استجابوا وآمنوا ووعدوا واستقاموا نجوا من العذاب وفازوا بالنعيم، وإن كذبوا فليس ذلك بضائرة شيئاً، فقد كذب الذين من قبلهم رسلهم كهود وصالح، ونوح من قبل، وما ضر ذلك رسل الله في شيء بل أنجاهم الله وأهلك المكذبين وليس هناك ما يخافه الدعاة إلى الله تعالى من عدم استجابة الأقوام لهم إذ ما عليهم إلا البلاغ المبين وقد بلغوا وبينوا.

2- إبراهيم الحجة :

وعن إبراهيم الحجة نقول: لقد أخبر الرب تبارك وتعالى أنه آتى خليله إبراهيم حجته التي تفوق كل حجة، وتعظم سائر الحجج، إنها حجة خالق العقول والحجى يمنحها من يشاء وقد وهبها إبراهيم ليتغلب بها على من يحاجه، ويريد أن يحجه، قال تعالى: **{وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ}**.

ولما كانت قوة الحجة من أسباب النصر على الخصوم، وكان الداعية المسلم يعتمد على قوة الحجة في دعوته لأن ذلك من أسباب نجاحها فإنا نستعرض هنا موقفين عظيمين لإبراهيم عليه السلام قارع فيهما الحجة وانتصر فيهما على خصوم التوحيد من قومه، ليشاهد من خلال ا لإستعراض كيف كان الخليل عليه السلام يرد حجج المبطلين، وينتصر على الظالمين والمشركين بما آتاه الله من العلم والحكمة وقوة الحجة لعل من يقتدي به عليه السلام في أساليب دعوته وكيفية استخدام حجة ربه ليظهر على خصومه وينتصر على أعداء دعوته.

- **الموقف الأول** : كان له مع الطاغية النمرود البابلي الذي ادعى الربوبية أول من ادعاها من الخلق. وقد عرض هذا الموقف القرآن الكريم عرضاً موجزاً في عدة جمل لا تتجاوز العشر حيث قال تعالى من سورة البقرة: **{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}**.

وعرض هذا الموقف يكون كالتالي بابل من بلاد العراق ملك جبار يقال له النمرود بن كنعان بن كوشى بن سام بن نوح عليه السلام امتد ملكه حتى شمل كل المعمورة يومئذ ودام زمن ملكه نحواً من أربعمائة سنة فغره طول العمر وسعة الملك وقوة السلطان فادعى الربوبية كما ادعاها من بعده فرعون مصر على عهد موسى عليه السلام، فحضر مجلسه إبراهيم عليه السلام بعد حادثة إلقائه في النار ونجاته منها فدعاه إلى الإيمان بالرب تبارك وتعالى فأنكر الطاغية أن يكون هناك رب غيره، وأخذ يناظر إبراهيم في شأن وجود الله تعالى وربوبيته لكل شيء وما حمله على ذلك إلا كبرياؤه واغتراره بسعة ملكه وطول عمره.

وحاول الطاغية أن يقنع إبراهيم بأنه لا رب إلا هو، وأنه هو الرب لا غير فأنكر عليه ذلك إبراهيم

ورده وكان الطاغية قد سأل إبراهيم عن ربه فقال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت. فعرفه له بصفاته الخاصة به وهي الإحياء والإماتة وهما من مظاهر وجود الله تعالى وعلمه وقدرته، وتدبيره للكون والحياة. لأن من قدر على إعطاء الحياة وسلبها قادر على كل شيء ممكن وعلمه وقدرته، وتدبيره للكون والحياة. لأن من قدر على إعطاء الحياة وسلبها قادر على كل شيء ممكن في هذه الحياة هو الرب الحق الذي يستحق عبادة الخلق. أما من لا يحيي ولا يميت ولا يرزق الأحياء ولا يدر حياتهم فليس أهلاً للربوبية بحال من الأحوال، وعرف الطاغية أنه مهزوم أمام هذه الحجة الباهرة وقال من أجل الحفاظ على مركزه والبقاء على ما وجهه وصيانة لموافقة المنهار أمام قوة الحق : {أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ}، بهذا قد اعترف ضمناً أن هنا رباً غيره، كل ما في الأمر أنه هو أيضاً رب يحيي ويميت كما يحيي رب إبراهيم يميت، وتقول الأخبار أنه عمد إلى جانيين في السجن قد استوجبا القتل فدعاهما إلى مجلسه فنفذ حكم الإعدام في أحدهما وعفا عن الآخر. بذلك خدع عقول الحاضرين من أهل بطانته ورجال مجلسه، وأنه فعلاً يحيي ويميت، إلا أن إبراهيم تفطن للخدعة وعرف المغالطة وقال له إنك أحييت حياً ولم تحيي الميت والرب الحق يحيي الميت ويميت الحي وإن بقيت على مغالطتك فإن الله يأتي بالشمس صباح كل يوم من المشرق فأت بها أنت من المغرب. ولم يجد الطاغية في هذا مجالاً للمغالطة والتضليل كما وجد ذلك في الأولى كما أنه لم يجد ما يقدمه حجة تدحض حجة إبراهيم فانقطع الطاغية وبهت وبان زيف حجته وبطلت دعواه، وقامت الحجة عليه لله.

نتائج هذه المناظرة :

نلخص ثمرة هذا الموقف في النقاط الست التالية:

1- قوة السلطان وسعة الملك وطول العمر من موجبات الغرور والطغيان للإنسان.

2- الدعاة يغشون مجالس الملوك لنصحهم ووعظهم وإرشادهم، أو لدعوتهم إلى ربهم. ولا ينقص ذلك من شرفهم ولا يمس بكرامتهم.

3- صاحب الرسالة يبلغها ولا يهاب في ذلك سلطاناً ولا يخاف بطشاً ولا عدواناً.

4- الإدلاء بالحجة يكون بعد الإنكار أو ظهور علاماته.

5- الإنكار بالحجة من القوي إلى الأقوى لإفحام الخصم وإقامة الحجة عليه.

6- النصر والغلبة لدعاة الحق وناصريه، والهزيمة والإنكسار لدعاة الظلم والقائمين عليه.

وأخيراً أن السر في هذا ا لإنتصار الباهر الذي حققه إبراهيم على خصمه النمرود عليه لعائن الله تعالى هو موالاة الله تعالى لإبراهيم فإن من والاه الله تعالى أخرجه من كل ظلمه، وأمده بكل نور وبه ينتصر ويظهر إذ ذكرت هذه القصة تدليلاً على قوله تعالى: {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ

هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}.

الموقف الثاني :

جاء هذا الموقف في قول الله تعالى من سورة الأنعام، **{وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}.**

ولنستعرض أحداث هذا الموقف على النحو التالي:

أنه بعد أن ألان إبراهيم جانبه لوالده وعرض عليه دعوة الله تعالى في لطف وظرف وأدب ازداد ع ىق آزر وظهر إصراره على كفره، وعدم تراجعه عن موقفه العدائي لإبراهيم داعي الله تعالى الأمين. هنا تغير موقف إبراهيم إزاء آزر فاتسم بنوع من الشدة والصرامة فقال ما قصه الله تعالى في كتابه من سورة الأنعام: **{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ}** وفي هذا تصريح كامل بتضليل آزر وقومه خالٍ من كل مواربة أو مجاملة.

ورأى إبراهيم عليه السلام أن يسلك في هداية قومه طريق الوقوف بهم على مظاهر الكون وآيات الله فيه ليريهم خطأهم في عبادة غير الله تعالى من تلك الأصنام التي لا تخلق شيئاً ولا تنفع ولا تضر أحداً علهم يثبون إلى رشدهم ويعودون إلى عبادة ربهم الحق الذي خلقهم ورزقهم ويميتهم ثم يحييهم وهو على كل شيء قدير.

فلما أظلم الليل بغروب شمس النهار وطلع كوكب من الكواكب المنيرة ونظر إليه وقال في أسلوب استفهامي إنكاري: هذا ربي أي أهذا ربي؟ كما يزعمون؟ فلما أفل الكوكب وغاب بغروبه في الأفق قال: لا أحب الآفلين. وبذلك قرر عدم صلاحية الكوكب للألوهية لذهابه، وطلب غيره مما يصلح لذلك. فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل القمر، قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الظالمين. فأرى إبراهيم قومه وأسمعهم أنه باحث عن آية طالب له متطلع إلى يوم يعرف فيه ربه الذي خلقه ورزقه وخالق كل العالمين حتى رأى الشمس بازغة وهي أعظم كوكب في السماء وأكثر الكواكب إشراقاً ونوراً وضياءً. فلما رآها قال هذا ربي هذا أكبر. فلما أفلت بغروبها وذهاب جرمها واختفائه عن أعين الناس واجه قومه بالحقيقة التي ينشدها لهم يا قوم إني بريء مما تشركون إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين. وهنا حاجه قومه في توحيد ربه فأنكروا عليه ذلك كما أنكروا عليه براءته من آلهته فانبرى لهم قائلاً: **{أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ}**، فكيف يصح عقلاً أن أتنكر لربي رب السماوات والأرض فأنكر وجوده وأنكر توحيده، والحال أنه قد هداني لمعرفته فعرفته وإلى صراطه المستقيم

فسلكته، أبعد كل هذا تحاجوني في ربي أما ترعون، أم أنكم قوم لا تعقلون؟. ولما رأوا من إبراهيم الإصرار على التوحيد، وإبطال الشرك والتنديد به، وشاهدوا استخفافه التام بآلهتهم المدعاة الباطلة خوّفوه بآلهتهم، وأنها ستنتقم لنفسها ولعابديها منه إن هو بقي على معاداتها والإستخفاف بها والسخرية منها.

فرد عليهم إبراهيم قائلاً: سأبقى على توحيد الله، وعلى الدعوة إليه، منددا بشرككم ساخراً من آلهة باطلكم، ولا أخاف تلك الآلهة التي تشركون بها إن تصيبني بشيء، إذ أنها لا تنفع ولا تضر لضعفها وحقارتها إن هي إلا أصنام نحتموها بأيديكم، وعبدتموها بأهوائكم، فكيف تضر، أو يخاف منه ضر أو شر، اللهم إلا إذا أراد ربي أن يصيبني بشيء عقوبة لي على تقصير مني في عبادته، أو ابتلاء لي في طريق دعوته للصبر عليها، أو أتخلى عنها فإن ذلك من مقتضيات حكمة الله وعلمه، فقد وسع ربي كل شيء علماً.

ثم بعد إقامة الحجة عليهم في بطلان آلهتهم وعجزها عن إصابته بأي أذى أو سوء لم يرده الله تعالى له. أقبل عليهم يوبخهم بجهلهم وغفلتهم وعدم تذكرهم إذ لو علموا بطلان ما هم عليه، ولم يجهلوا الحق الذي يدعون إليه، ولم يغفلوا عن واقع الحياة التي يعيشون وتذكروا في أنفسهم أن ما يخوفون به إبراهيم إنما هو جماد لا حياة فيه، ولا سمع ولا بصر له فكيف يمكنه أن يضر إبراهيم، أو يناله بأدنى سوء، لما خوفوه عليه السلام بما اتخذوا من أصنام آلهة ولكنهم جهلاء غافلون فاقدون لكل تدبر أو تذكر.

وبعد أن وبخهم على جهلهم وغفلتهم، وعدم تذكرهم، عاد لحجاجهم عله يكسر من أغلال تقليدهم ويمزق غفلتهم، ويخفف من تبلد حسهم فيتبينوا الحق ويرجعوا إليه فتتم هدايتهم وينجو من غوايتهم. فقال لهم في أسلوب ا لإستفهام التعجبي المثير للنفس، المحرك للضمير: وكيف أخاف أنا من أشركتم من آلهة لا سمع لها ولا بصر، ولا قدرة لها على نفع أو ضر، ولا تخافون أنتم أنكم أشركتم في ربوبية الله تعالى وعبادته ما لم ينزل به سلطاناً من هذه الأوثان التي تعبدون، والآلهة التي تزعمون، مع أن الشرك ظلم عظيم يستوجب فاعله العقوبة الشديدة، والعذاب الأليم.

وختم حجاجه عليه السلام بقوله: فأي الفريقين أحق بالأمن من الخوف إن كنتم تعلمون. فريق الإيمان والتوحيد والطاعة وهو أنا، أم فريق الكفر والشرك والمعصية وهو أنتم. أجيبوا عن سؤالي هذا إن كان لديكم علم تجيبون به. وإلا فاعترفوا بجهلكم، وضعف مسلككم في حجاجكم. فإن ذلك أولى بكم، وأليق بمثلكم أيها المحجوجون المغلوبون.

وإلى هنا انتهى الحجاج بين إبراهيم وقومه بانتصار إبراهيم وغلبته وانكسار قومه وهزيمتهم. والنتائج التي تستخلص من هذا الحجاج قد تلخص فيما يلي:

1 - مراعاة الأدب في الدعوة والمناظرة بعدم استعمال الكلمة الخشنة النابية، إلا إذا خرج الخصم المجادل عن تلك الحدود من الآداب المرعية في الجدال والمناظرة.

2 – مراعاة حال المدعو، وتقديم البيان والهدي إليه شيئاً فشيئاً والأخذ بيده تدريجاً تدريجاً إلى أن يوصل به إلى محيط الهدى ودائرة النجاة إن قدر له ذلك، وإلا فقد أعذر إليه وبرئت ذمة الداعي.

3 – من واجب منكر الباطل على غيره أن يتبرأ منه كما تبرأ إبراهيم من الشرك والمشركين، والإزدراء منه بتناقضه، إذ كان ينهى عن الشيء ويفعله أو يرضى به.

4 – تخويف المشركين إبراهيم من آلهتهم أن تمسه بسوء، سنة باقية في الناس إلى اليوم، فكثيراً ما يخوف القبوريون اليوم المصلحين من الأولياء والصالحين الأموات إذا المصلح الداعي أنكر على الناس دعاءهم والإستغاثة بهم والذبح لهم.

5 – صاحب الحق أولى بالدفاع عن حقه وتحمل الأذى في ذلك من صاحب الباطل، غير أن الناس اليوم على خلاف ذلك فإنا نرى أصحاب الباطل يبذلون الكثير من الجهد والمال في سبيل نصرة باطلهم ويتحملون في سبيل ذلك الكثير من الأتعاب، ونرى على العكس من ذلك أصحاب الحق فإنهم في الغالب لا يبذلون لنصرة حقهم نفساً ولا مالاً، ولا يتحملون تعباً كبيراً ولا صغيراً.

6 – الحق وإن ظهر لا بد له من تأييد بقوة الحجة، أو سلطان، وإلا لما سلم أهل الباطل له، ولا ما أذعنوا له، واعترفوا به.

والحق وإن علا ليس بمؤيد	حتى يحوط بجانبيه حسام
خط الرسول بيديه خندقاً	ومشى تحوله قنى وسهام

3– إبراهيم البلوى :

وعن إبراهيم البلوى نقول: إن ما ابتلي به إبراهيم عليه السلام من صنوف البلوى، وضروب الإمتحان ليعد وحيداً في بابه، فريداً في حياة الإبتلاء والإختبار. إنه لم يعرف في تاريخ البشرية الطويل وخاصة بين أصحاب الرسالات من ابتلي ابتلاء إبراهيم الخليل، كل ذلك ليعد لمنصب الإمامة التي لم يتسمه ولم يرق إليه سوى إبراهيم عليه السلام. قال تعالى في ذلك: **{وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً}**.

إن ما ابتلي به إبراهيم فصبر له وفاز بحسن عقباه لكثير جداً، ونحن نذكر طرفاً منه:

1– إرساله وحده إلى أمة غارقة في الوثنية، ضاربة في الضلال، على رأسها ملك جبار طال عمره واتسع ملكه فغره ذلك فادعى الربوبية، فهو لا يرى رباً سواه، ولا ملكاً حاكماً غيره إلى مثل هذه الأمة وهذا الملك يُبعث إبراهيم ليندد بالشرك والوثنية، ويصرخ في وجه الظالم والطغيان. فيحمل رسالته بكفه وينادي بأعلى صوته: ماذا تعبدون أئفكاً آلهة دون الله تريدون، فما ظنكم برب العالمين؟ ما هذه التماثيل

التي أنتم لها عاكفون.. ما تعبدون؟ قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين. هل يسمعونكم إذ تدعون، أو ينفعونكم أو يضرون. قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون. قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنهم عدو لي إلا رب العالمين. تالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون.

2- إلقاؤه في النار :

ورأى المشركون آلهتهم متساقطة مبعثرة متناثرة فثارت ثائرتهم، وتأججت نار الحمية في قلوبهم، وتساءلوا عمن فعل بآلهتهم الخراب والدمار، والحق بها الخزي والعار وعلموا أنه الفتى الساخط عليها الناقم منها إبراهيم أحضروه وناظروه فكبتهم وأذلهم وألحق المهانة بهم وبآلهتهم فحاكموه وظلماً حكموا عليه فبنوا تنوراً أعظم تنور وأحرقوا فيه النار حتى كانت جحيماً لا تطاق القوة فيها فكان هذا كذلك امتحاناً من أقسى الإمتحانات وابتلاء نادراً في باب الإبتلاءات.

3- هجرته إلى الشام :

وثالث الإبتلاءات أن يهاجر إبراهيم فيترك أهله وبلاده، ويقول إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم. إنه بعد أن أنجاه الله من النار بكلمة الله تعالى **{قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ}** فكانت كما أراد الله برداً وسلاماً على إبراهيم، فخرج منها ولم يمسه سوء ولم ينله مكروه. قرر إبراهيم الهجرة فخرج مهاجراً يؤم أرض الشام وبلاد كنعان. فخروجه من بلاده عليه السلام تاركاً كل شيء وراءه وهو يتجه إلى مجهول من البلاد ليس له فيه صديق أو حميم يعتبر ابتلاء من أعظم أنواع الإبتلاءات.

4- إسكانه امرأته وولده بوادي مكة:

بأمر الله تعالى أسكن إبراهيم أم إسماعيل وولدها وادي مكة حيث لا زرع ولا ضرع والمرأة شقيقة الرجل، والولد فلذة كبده. فليس من غير ا لإبتلاء القاسي الشديد أن يضع الرجل زوجه وولده في مكان بعيد ليس فيه ماء ولا مرعى، ولا جار ولا دار، ويقفل راجعاً فتقول له امرأته: لمن تتركنا هنا؟ .. آلله أمرك، فيقول: نعم، فتقول إذاً فاذهب فإنه لا يضيعنا. يذهب ويترك امرأته وولده امتثالاً لأمر ربه تعالى.

5- رؤياه ذبح ولده:

ومن أعظم البلايا التي ابتلي بها إبراهيم وحي الله تعالى إليه أن يذبح ولده إسماعيل قرباناً لله تعالى إنه بعد أن كبر إسماعيل وبلغ حد السعي والعمل رأى إبراهيم عليه السلام رؤياه العظيمة التي توحي بذبح إسماعيل قرباناً لله تعالى فقال لإسماعيل يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى، فأجابه إسماعيل قائلاً: يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين، وخرج إبراهيم بإسماعيل إلى منى ليذبحه هناك، وفعلاً تله للجبين، وأمر مديته على رقبة الابن الصابر وإذا الحديد لم يقطع، وإذا بمناد يقول خذ

الكبش واترك الغلام، وفداه الله بذبح عظيم فذبحه ونجا إسماعيل وقال الله تعالى يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين إن هذا لهو البلاء العظيم .

6- بناء البيت :

إذا كان التكليف من الإبتلاء فإن تكليف إبراهيم ربه ببناء بيت له بوادي مكة حيث لا رجال ولا ماء ولا عدة ولا عتاد فيقوم إبراهيم بمساعدة ولده إسماعيل بإنشاء بيت عظيم عجزت قريش وهي أمة عن إتمامه عند تجديد بنائه، لتكليف جد شاق ابتلي به إبراهيم إعداداً له ليصبح إمام الناس، وخليل رب العالمين **{وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ} {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}.**

ونهض إبراهيم بهذا التكليف وبنى البيت الذي أمر ببنائه، فكان هذا نوعاً من الإبتلاء الذي ابتلي به إبراهيم فصبر عليه، فكان بذلك إبراهيم البلوى والوفاء ..

7- ختانه نفسه :

وآخر هذه البلايا التي ابتلي بها إبراهيم فصبر لحكم ربه برضا مولاه الذي ابتلاه أمر الله تعالى له أن يختن بعد أن بلغ سن ثمانين من السنين، فاختتن إبراهيم بقدوم. كما أخبر بذلك الرسول صلى الله عليه وسلم في صحيح الأحاديث.

إنه بهذه السلسلة ذات الحلقات السبع من الإبتلاءات العظيمة أصبح بها إبراهيم بحق إبراهيم البلوى وإبراهيم الوفاء، وفاز بلقبين عظيمين لم يفز بهما غير إبراهيم وهما الإمامة، والخلة، فكان إبراهيم إمام الموحدين، وخليل رب العالمين.

فسلام عليه في العالمين، وسلام عليه في المرسلين.

4- إبراهيم الهجرة :

إن للهجرة في دين الله تعالى شأناً ناهيك بها أنها تعدل الجهاد في ذات الله تعالى كما قال تعالى:
{وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقاً حَسَناً وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ، لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ}.

ومن هنا كان العالمون من سلف هذه الأمة يقول أحدهم: " لا أبالي أكنت في قبر مجاهد، أو مهاجر".

وما ذاك إلا أن الإبتلاء بهما متساو في المشقة، متعادل في المثوبة والأجر.

وإبراهيم عليه السلام أول من سن الهجرة في ذات الله فقال بعد أن نجاه الله من النار: إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم، فهاجر من بابل العراق إلى الأرض المباركة من الشام وترك وراءه الوطن

والأهل والمال. واتجه إلى أرض مجهولة لديه، وبلاد بعدت عليه، فراراً بدينه، وهجراً لقومه وأهله وما يعبدون من دون الله. فخرج إبراهيم ومن آمن معه وهو ابن أخيه لوط عليه السلام، واتخذ من أرض الشام دار هجرة، فكانت الشام تعرف بعد ذلك (بمهاجر إبراهيم). وسر هذه الهجرة كغيرها من الهجر في ذات الله: أن يتمكن المهاجر من عبادة الله تعالى بعد أن عجز عنها في بلاده، وبين قومه وأن لا يرى المنكر أمامه وهو عاجز عن تغييره وأن يطلب من الأسباب ما يمكنه من الجهاد نصرة للحق وأهله، وإرغاماً للباطل وحزبه.

5- إبراهيم الخلة :

وعن إبراهيم الخلة [6] نقول: إن إبراهيم عليه السلام بذل كل شيء في سبيل حب الله تعالى فغلب عليه ذلك حتى كان لا يطعم الكافر طعاماً ولا يسقيه شراباً، وإلى ذلك الإشارة في قوله تعالى: **{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ}** فقط طلب الرزق من الثمرات لمن آمن فقط دون من كفر .. فرد الله تعالى ذلك بقوله: **{وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}**.

وفي هذا تقول آثار: إن كافراً استقرى إبراهيم يوماً فسأله طعاماً فقال له :" إن تؤمن بربي أطعمتك؟ فقال الكافر: لا أترك ديني من أجل لقمة طعامك وانصرف، فأوحى الله تبارك وتعالى إلى إبراهيم: عبدي أطعمه منذ سبعين سنة وهو كافر بي ولم أمنعه الطعام لكفره، وأنت استطعمك يوماً فاشترطت عليه أن يترك دينه الذي هو عليه منذ سبعين. فلحقه إبراهيم و اعتذر إليه وأطعمه فقال له الكافر: ما بدا لك يا إبراهيم؟ قال: لقد أوحى الله إلي بكذا وكذا.. فقال الكافر : أو قد وقع هذا، مثل هذا ينبغي أن يؤمن به ويعبد فأسلم الكافر ".

وتقول الآثار: "إن جبريل وميكائيل وإسرافي ل لما نزلوا ضيفاً على إبراهيم وهم في طريقهم إلى قرى لوط، وقدم لهم الطعام وامتنعوا أن يأكلوا. فقال لهم : ألا تأكلون؟ فقالوا: إنا نأكل طعاماً إلا بحقه فقال: كلوا بحقه قالوا: وما حقه؟ قال : إن تسموا الله في أوله وتحمدوا لله في آخره. فالتفت جبريل إلى ميكائيل وقال: حق للرجل أن يتخذه ربه خليلاً".

ومهما يكن فإن الخلة قالها إبراهيم – كما قال تعالى واتخذ الله إبراهيم خليلاً – قالها بتوحيده وصبره وصدقه وحبه ووفائه ورحمته وهجرته وطاعته ونصيحته ومن أعظمها أن يطلب إليه الحبيب أن يقدم له فلذة كبده فلم يتردد إبراهيم وقدم إسماعيل قرباناً لله تعالى فأي ابتلاء أعظم من هذا ا لإبتلاء؟ وكيف والله تعالى

---

6 الخلة أقصى المحبة وفي وجه اشتقاقها أقول كثيرة أشهرها وأقربها أنها من تخلل الحب كل مسالك النفس وتعلقه بكل جزئيات البدن. وعليه قول القائل: قد تخللت مسلك الروح مني وبذا سمى خليلاً.

يقول فيه: {إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ , وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ، وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ سَلامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ}.

6- إبراهيم القدوة :

وعن إبراهيم القدوة نقول: إن إبراهيم بمواقفه البطولية المشرفة تأهل لأن يكون قدوة لمن جاء بعده من أهل الإيمان والصلاح. وحسبنا في ذلك أن يقول الله تعالى في كتابه العزيز: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ}.

فقد جعل الله تعالى إبراهيم قدوة لأهل الإيمان يقتدون به في شتى مواقفه التي نجملها فيما يلي: في توحيد الله، في البراءة من الشرك وأهله، في الهجرة في ذات الله، في الصبر على طاعة الله، في الوفاء بكل التزام لله.

ضرب إبراهيم المثل في كل هذه الجوانب من حياة الإيمان والإسلام والإحسان فأصبح مثالاً يحتذى، وقدوة صالحة بها يقتدى.

7- إبراهيم الرحمة :

وعن إبراهيم الرحمة نقول: إنه لا أدل على رحمة إبراهيم التي غلب وصفها عليه حتى أصبح يعرف بها من أن يبتليه ربه تعالى بذبح ولده إسماعيل، لأنه ابتلاء يرفع المبتلى إلى درجة الخلة يكون أقسى أنواع الإبتلاء، وأشده. فالأمر بذبح فلذة الكبد امتحاناً لرجل عرف بالرحمة القلبية حتى كان ينادى بالأب - الرحيم، دال على رحمة إبراهيم وشاهد صدق عليها.

ومن مظاهر رحمة إبراهيم قوله وهو يناجي ربه: فمن تبعني فإنه منى، - ومن عصاني فإنك غفور رحيم. فإن في قوله: فأنت غفور رحيم تلويحاً أشبه بتصريح بأن يقول ومن عصاني فيما هو غير الشرك والكفر فاغفر له وأرحمه، فإنك غفور رحيم.

8- إبراهيم الأمة :

وعن إبراهيم الأمة نقول: إن وصف إبراهيم بلفظ الأمة كان من وصف الله تعالى له بذلك في قوله من سورة النحل: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} شاكراً لأنعمه.

ووصف الله تعالى هذا له بأنه أمة يعتبر شهادة من الله تعالى له بذلك وكفى بالله شهيداً.

ومعنى أمة أنه جامع للكمالات والفضائل التي لا توجد مجتمعة إلا في أم ة من الناس وهو العدد الكبير. كما أن معنى أمة دال على أن ما تقوم به الجماعة من الناس يقوم به الفرد الموسوم بأنه أمة، وعلى سبيل المثال نقدم رسول الله لهذه الأمة محمد صلى الله عليه وسلم. فنجده فداء أبي وأمي كان قائماً بما

تقوم به أمة من الناس وتعجز عنه، فالرسالة، والإمامة والقضاء، والقيادة فهذه المهام من المناصب لا يقوم بها عادة إلا أفراد عديدون فإذا قام بها فرد كان بذلك أمة وصح وصفه بأنه وحده أمة.

وهكذا كان إبراهيم أمة فإنه عاش دهراً طويلاً لا يعبد الله ويوحده في الأرض إلا هو، ولا يأمر بمعروف وينهى عن منكر في الأرض سواه، ثم قد جمع من الفضائل النفسية والكمالية البشرية ما لا يجتمع عادة إلا في العدد الكثير من الناس.

والعبرة من هذه الصفات الكمالية التي استعرضناها لإبراهيم عليه السلام هي أن يجد فيها الداعية المسلم القدوة الصالحة والأسوة الحسنة فيتمثلها في حياته وهو قائم برسالة الحق والخير يعرضها على الناس ويدعوهم إلى الأخذ بها والتمسك بما فيها من الإصلاح والهدى ليكملوا ويسعدوا. فتساعده على حمل رسالته والوصل بها إلى حيث يريد أن يصل بها من إصلاح الناس وهدايتهم ليكملوا ويسعدوا في الحياتين، وسلام على إبراهيم في المرسلين والحمد لله رب العالمين .

ج- موسى الكليم :

من نماذج الدعاة إلى الله تعالى، وإلى الحق والخير، موسى النجي الكليم عليه الصلاة والتسليم.

ترجمته :

فمن هو موسى الكليم؟ إنه موسى بن عمران بن قاهث بن عازر بن لاوى بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليه السلام. لقب بالكليم وهو لقب تشريف عظيم، إذ كلمه ربه تعالى كفاحاً أي مواجهة بدون واسطة ملك أو غيره، كما يلقب بالنجي لمناجاة الله تعالى له، وتم له الكلام والمناجاة بطور سيناء، قال تعالى: **{وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً، وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً، وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيّاً}** .

كانت حياة هذا الرسول الكريم والداعية المخلص العظيم مليئة بالبطولات والتضحيات موحية بمعاني القوة والكمال، والخير والجمال. وإنه لمن غير المتيسر استعراض كل تلك الحياة، والوقوف منها على كل مواطن العظة والعبرة فلذا حسبنا منها لقطات قليلة، ونظرات عابرة يسيرة. تعود على من يقف عليها، وينظر فيها بفوائد روحية، وطوائلة خلقية لم يتوفر على مثلها لو درس حياة أمم وأجيال، من غير أمثال هؤلاء الرجال.

هذا وما سنلقي عليه نظرة خاطفة من حياة موسى النجي الكليم وهي كما تقدم مليئة بالعبر والعظات، زاخرة بالبطولات والتضحيات. هو الكمالات النفسية التالية:

بلاؤه وصبره. نجدته وعفته. قوته وأمانته. شجاعته وقوة حجته. صدقه ووفاؤ هـ. إخلاصه وتوكله. علمه وتواضعه.

بلاؤه وصبره :

فعن بلائه وصبره نقول: إن البلاء الذي اكتنف حياة النجي الكريم موسى عليه السلام من لدن ولادته إلى وفاته، لبلاء عظيم، وفي قوله تعالى من سورة طه: **{وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً}** إشارة واضحة صنوف البلأ الذي لازم حياة موسى الكليم من المهد إلى اللحد فسلام عليه في المبتلين، سلام عليه في الصابرين.

وها هي ذي نقاط سوداء نشير بها إلى صور عدة من ذلك البلاء :

وفي ذلك عبرة للمعتبرين، وذكرى للذاكرين.

- خوف أمه عليه، وهي حامل به، من أن يطلع عليه مجرموا آل فرعون ساعة وضعه، فيذبحوه تنفيذاً لقرار فرعون بذبح المواليد الذكور في ذلك العام.
- وضعه في صندوق خشبي وإلقاؤه في اليم كلما أحست أمه بحركة، أو سمعت صوتاً عند باب منزلها خوفاً عليه من آل فرعون أن يقتلوه. حتى كان يوم انقطع فيه الحبل وذهب الماء بالتابوت إلى قصر آل فرعون للناقمين عليه الطالبين له، فكان هذا فتوناً أي فتون.
- تحريم الله المراضع عليه، فلم يرضع منهن واحدة وهو يتضور جوعاً، ويتألم عطشاً فترة من الزمن، حتى رد إلى أمه فأرضعته، وأخذت أجرة عليه. فكان هذا بلاء، وكان فتوناً أي فتون.
- هم فرعون بقتله لما تشاءم منه، حتى شفعت آسيا له بقولها: قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً. فكان هذا بلاء به وفتوناً أي فتون.
- قتله القبطي (خطأً) وما لحقه من جراء ذلك من الهم والغم، وما أصابه من الخوف نتيجة ائتمار الملأ به ليقتلوه، بالنفس التي قتلها، فقضى أياماً خائفاً يترقب، فكان هذا بلاءً عظيماً صبر موسى عليه.
- هجرته وحده من أرض مصر إلى مدين بلا زاد يأكله ولا ظهر يركبه فناله من الجوع والأعباء ما هو بلاء أو شد من البلاء.
- رعيه الغنم بالصحراء وهو الذي عاش في قصور الأمراء حتى قضى عشراً من السنين في أرض الغربية بعيداً عن والدة وأخته وأخيه. فكان هذا من البلاء الذي نزل به وصبر عليه.
- تكليفه وإن كان فيه تشريفه بحمل الرسالة إلى فرعون الطاغية الجبار، مدعي الربوبية وزاعم الألوهية، مضمونها: أن يتجلى عن دعوى الربوبية والألوهية لله ويعبد الله الذي لا إله غيره ولا رب سواه. وأن يرسل مع موسى بني إسرائيل عباد الله إلى الأرض المقدسة التي كتب

الله ، فكان في هذا من البلاء ما فيه، فصبر موسى عليه.

- خوضه المعركة الفاصلة بينه وبين السحرة تلك المعركة التي أوجس فيها موسى خيفة حتى قال له ربه تعالى: {لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى} .. فكان هذا من البلاء.
- حجاجه لفرعون وآله عدة سنين يقارع فيها الحجة بالحجة ويقابل فيها البرهان بالبرهان، ويسمع فيها من التهديد والوعيد، ما هو بلاء أو أعظم من البلاء.
- ردة بعض بني إسرائيل في غيبته بعبادتهم العجل، وما ناله في ذلك من هم وما أصابه من حزن وغم وما تملكه من جراء ذلك من غضب حتى ألقى الألواح فتكسرت وأخذ برأس هارون أخيه يجره إليه عاتباً عليه مؤنباً إياه. أليس هذا من البلاء، فصبر عليه موسى.
- خروجه بخيار قومه إلى الطور ليطلب لبني إسرائيل التوبة ويسأل لهم العفو والمغفرة، وتعنت أولئك المختارين معه، وطلبهم رؤية الله جهرة، حتى أماتهم الله وأحياهم بأخذ الصاعقة لهم وهم ينظرون. وعدم أخذهم التوراة وتمردهم على موسى في ذلك حتى شق الله الجبل فوق رؤوسهم فأخذوها مكرهين خائفين. أليس هذا من البلاء المبين ؟ لموسى الكليم ؟ وقد صبر عليه.
- اشتراط الله تعالى لقبول توبتهم أن يقتل بعضهم بعضاً ففعلوا حتى بكى موسى وهارون خوفاً من فناء بني إسرائيل، وسألا الله تعالى أن يرفع منهم القتل فاستجاب الله تعالى لهم وتاب على بني إسرائيل إنه هو التواب الرحيم، أليس هذا من البلاء المبين الذي صبر عليه موسى الكليم؟
- خروجه بني إسرائيل لقتال العمالقة بأرض القدس، ونكول قومه عن قتالهم، وإظهارهم الجبن والخوف منهم بقولهم إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها. وإساءتهم الأدب معه عليه السلام إذ قالوا له: {فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ }. أليس هذا من البلاء المبين؟
- ما قضاه في التيه مع بني إسرائيل من حياة طويلة تعرض فيها لألوان من تعنت بني إسرائيل وسوء آدابهم، وقبح سلوكهم الأمر الذي لا يطيقه الأمثل موسى الكليم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم. أليس هذا من البلاء المبين الصبر العظيم الذي جعل موسى في عداد أولي العزم الصابرين؟ لاقى موسى عليه السلام كل هذه الضروب من البلاء، فصبر عليها، فكان بذلك أحد أولي العزم الصابرين الذي أمر إمام الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم بأن يصبر كما صبروا في قول الله تعالى: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ} وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى

بن مريم عليهم السلام.

نجدته وعفته :

وعن نجدة موسى وعفته المثاليتين نقول: ومن كمالات موسى الكليم النفسية والخلقية نجدته وعفته، وهما خلتان كريمتان يتنافس في اكتسابهما والإتصاف بهما أعاظم الرجال. وبما أن هاتين الخلتين تغلبان على حياة الكليم الروحية والخلقية فإنا نكتفي بذكر حادثتين وعرض موقفين تتجلى لنا فيهما خلتا النجدة والعفة عند موسى النبي النجي عليه السلام.

إن الحادثة الأولى وحياة موسى كلها أحداث مروره بالقبطي والإسرائيلي وهما يقتتلان، واستغاثة الثاني به ليخلصه من الشدة التي أنزلها الأول به، وما تردد موسى في نجدته وإغاثته حيث وكز القبطي وكزة قضى فيها عليه، فكانت هذه مظهراً من أجل المظاهر لنجدة موسى وقوته.

والثانية كانت عند ما جلس تحت الشجرة يستظل بظلها قريباً من ماء مدين والرعاة يسقون ويصدرون، وامرأتان تذودان غنمهما حتى لا تختلطا بالرعاء حفاظاً على شرفهما، وإظهاراً لكمال عفتهما، فيتقدم الكليم مدفوعاً بخلة النجدة المتأصلة في نفسه، وكأنه أسد هصور وعلى ما هو عليه من وعثاء السفر وغلبة الجوع، فيسقى لهما غنمها ويتولى إلى الظل الذي كان به، كأسد يعود إلى عرينه، فاخر موسى بنجدته المتقدم وقدم المتأخر، وكذلك أهل النجدة يفعلون.

فهذان هما الحادثان وقد تجلت لنا في كل منهما خلة النجدة لدى موسى عليه السلام. أما الموقفان فأولهما كان عند ما تقدمته الفتاة المرسلة إليه لتأتي به إلى والدها ليجزيه على معروفه الذي أهدى وجميله الذي أسدى، وقد عبثت الريح بدرع الفتاة فانكشف منها بعض ساقها فأبت عفة موسى عليه أن ينظر منها إلى ما كشف الريح عنها، فقال لها: " يا فتاة الطهر، امشي وراء الظهر، وأرشديني إلى الطريق بحصى تقذفين بها ".

فكان هذا موقفاً ً رائعاً لموسى تجلت فيه عفته أكبر التجلي، وثانيهما كان في استئجاره نفسه من والد المرأتين يرعى له غنمه أتم أجلين وأوفهما " عشر حجج كاملة " مقابل شبع بطنه وإحصان فرجه، إن عملاً كهذا من شاب في مقتبل العمر، وقوة الفتوة ليعد نادرة النوادر، في حياة الشباب وما كان ذلك إلا لشرف أصل موسى، وكرم محتده وزكاة روحه وعفة نفسه. إن هذه المواقف المشرفة التي وقفها موسى وهو يهيئ لحمل الرسالة ويعد للإمامة والقيادة، لما ينبغي أن يكون نصب أعين الدعاة في كل بلاد الله. أن النجدة والعفة متى خلت النفس منهما خف وزنها، ورق حبل كمالها، وأصبحت نفساً لا عبرة بها، ولا وزن لها وأنى لها يومئذ أن تقود أو تسود.

قوة وأمانته :

وعن قوة موسى وأمانته نقول: أن القوة والأمانة في الرجل من مؤهلاته الكبرى لتسنم المراتب العالية،

والإرتقاء إلى المناصب الشريفة السامية، وأن حمل رسالة الحق والخير والإصلاح إلى الناس لمنصب شريف، ومرتبة عالية فلا يرشح لهما إلا من توفر لديه مؤهل القوة والأمانة، وقد جمع الله تعالى لعبده ورسوله موسى عليه السلام بين القوة والأمانة: قوة البدن وقوة العزم وقوة الروح، وأمانة النفس وأمانة القول وأمانة العمل، فكان قوياً أميناً، وكان أهلاً لحمل أعظم رسالة في تاريخ بني إسرائيل. وإن أردنا أن نشير إلى بعض الأحداث التاريخية في حياة موسى التي ظهرت فيها قوته وأمانته، زيادة على شهادة بنت شعيب له ذلك وهي ترشحه للعمل في مال أبيها، إذ قالت: {إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ}.

فإنا نذكر حادثة قتله القبطي بضربة واحدة مالها ثانية فكانت هي القاضية. قال تعالى فيها: {فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ}.

كما نذكر أنه على ما أصابه من جهد، وما مسه من جوع ونصب في رحلته الشاقة وسفره الطويل (والسفر قطعة من العذاب) استطاع أن يرفع غطاء البئر، وقد كان صخرة كبيرة لا يضعها ولا يرفعها بحال إلا عصبة من الرجال وهو المنظر الذي شهدته فتاته فعرفت به قوته، وشهدت بها له عند أبيها ساعة ما رشحته للعمل فقالت: يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين. هذا عن قوة موسى أما عن أمانته فحدث ولا حرج وحسبه أن يقرر وصفه بالأمين القرآن الكريم في قوله تعالى: {أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ}[7].

والأمانة وصف لازم لكل أرباب الرسالات، وحاملي شرف النبوات وموسى نبي الله، ورسول الله، ولهذا نكتفي من جانبنا في إثبات أمانة موسى وتقريرها، بإعادة استعراض الحادثة التي سبق إن استعرضناها مستدلين بها على خلة العفة النفسية لموسى، وهي حادثة بنت العبد الصالح لما صحبته من منزله قريباً من الماء، إلى منزل والدها حيث جمعت الطريق بينهما في خلوة كاملة. فقد روى أنه عندما بدا له بعض جسمها عارياً مكشوفاً لم تسمح له أمانته أن ينظر إليها فاضطر إلى أن يمشي إمامها وهي دليله، كل ذلك من أجل أن لا يخون أمانته بنظرة يلقيها على جسم لا يحل له النظر إليه، كأن موسى قرأ ما قرأناه في كتاب الله، {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ}.

إن موسى لم يقرأ هذا الذي قرأناه، ولكنه كان أميناً بالفطرة التي فطره عليها الله جل جلاله. فسلام عليه ذا نجدة وعفة. وسلام عليه قوياً أميناً.

شجاعته وقوة حجته:

وعن شجاعة موسى وقوة حجته نقول: إن الشجاعة في اعتقاد الحق وقوله والعمل به تعتبر من أنبل الخلائق، وأسمى الفضائل، وأكرم الشمائل، وفي الحديث الشريف سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب،

---

7 الآية في سورة الدخان ونصها: {ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم. أن أدوا إلي عباد الله إني لكم رسول أمين}.

ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله. وإن كانت الشجاعة على نوعين: شجاعة قلوب، وشجاعة عقول، والأخيرة قليلة، والأولى كثيرة.

إن الشجاعة في القلوب كثيرة   وأرى شجعان العقول قليلا [8]

وكلا نوعي الشجاعة محمود محبوب، وإن كانت شجاعة العقول أكثر حمداً لاختصاصها بالنوع الإنساني دون شجاعة القلوب حيث يشارك فيها الإنسان الحيوان ومن أشجع من ذي اللبدة ملك السباع الأسد !!؟

ونبي الله موسى عليه السلام أوتي من الشجاعة بنوعيها حظاً كبيراً وقسطاً وفيراً. ولنستعرض بعض الجوانب من حياته لنشاهد المواقف الشجاعة التي وقفها عليه السلام، وبها تتجلى لنا شجاعة موسى القلبية والعقلية معاً وعلناً نأتسى به في شجاعته فنكتسب خلة شريفة: الدعاة أحوج ما يكونون إلى مثلها في حياة الدعوة التي هي حياة العمل والجهاد.

تقدم موسى عليه السلام برسالته إلى فرعون وهي رسالة مزدوجة جانب منها يطالب فرعون بالإيمان بالله تعالى ومعرفته وخشيته: إذ أمر الله تعالى موسى أن يقول لفرعون: هل لك إلى، أن تزكى، وأهديك إلى ربك فتخشى. وجانب يطالبه بالسماح لشعب بنى إسرائيل أن يذهبوا مع موسى إلى الأرض المقدسة من بلاد الشام (فلسطين) إذ أمر الله تعالى موسى وهارون أن يقولا لفرعون **{إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرائيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى}** .

ولما عرف فرعون مضمون الرسالة وما تحمله من دعوة صريحة إلى الإيمان بالله وحده والكفر بكل الطواغيت التي تعبد من دون الله، ما تردد فرعون اللعين في تهدد موسى بالسجن مرة وبالقتل أخرى، إذ قال: لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين. وقال لرجال دولته: ذروني أقتل موسى وليدع ربه.... فمثل هذا التهديد والوعيد من طاغية كفرعون من شأنه أن يرهب ويخيف ويجعل المطالب بالحق يتخلى عن مطالبة بعذر الضعف والعجز لكن موسى الشجاع لم يفت ذلك من عضده، ولم يفل من قوة عزمه فقابل تهديد فرعون ووعيده بشجاعة لا نظير لها، إذ لم يزد أن قال إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب. فقرر التوحيد وأبطل الشرك وذم الكبر والكفر وأهلهما. فهذا موقف بطولي نادر قد وقفه موسى يسمع فيه رعد التهديد ويرى برق الوعيد، فلم يضعف لدلك ولم يهن فكان مظهراً من مظاهر شجاعة موسى النادرة الفذة.

وموقف آخر يتجلى في تقديمه عليه والسلام السحرة عليه في إلقاء حبالهم وعصيهم التي استحالت في اللحظة الأولى إلى حيات وثعابين تملأ ساحة العرض الأمر الذي أوجس منه خوفه في نفسه. فأن تقديم

---

8 عجز البيت مكسور ولعله: وارى الشجاعة في العقول قليلا .

موسى لخصمه عليه في إظهار قوته والضرب بها أمامه لمظهر عظيم من مظاهر الشجاعة القلبية والعقلية معاً.

وموقف ثالث وإن ذكرنا له فيه جانبين عظيمين فيهما نجدته عليه السلام وقوته، فإن اندفاعته القوية نحو الجبار القبطي وهو يصاول الإسرائيلي الضعيف المستضعف، وأخذه إياه بتلك القوة وبدون تردد ولا تهيب حتى أزهق روحه لمظهر جلي لشجاعة موسى القلبية التي هي زينة الرجال وحلية الأبطال.

هذا عن شجاعته أما عن قوة حجته فحسبنا في تجلية ذلك وبيانه أن نسمع لهذا الحوار الكبير الذي دار بين موسى النبي الكليم وبين خصمه فرعون الجبار العنيد أرسل الله تعالى موسى وأخاه هارون عليهما السلام برسالة الحق إلى فرعون وم لائه، فقا لا: إنا رسول رب العالمين: أن أرسل معنا بني إسرائيل، فرد فرعون على هذا الطلب بقوله: {أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ، وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ }؟؟؟ يريد اللعين بهذا الخطاب: القدح في رسالة موسى واستبعاد أن يكون رسولاً حيث ذكر بفضله عليه في قصره، وبقتله القبطي وهي جناية قتل تقعد بصاحبها عن شرف الرسالة فرد موسى على الفور وفي شجاعة نادرة قائلاً: {فَعَلْتُهَا إِذاً}– أي إذ ذلك وأنا ذلك من الظالمين أي الجاهلين, {فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِين وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرائيلَ}.

وواصل فرعون رده على قول موسى وهارون أنا رسول رب العالمين قائلاً : {وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ}، فأجاب موسى بقوله: {رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ}. فالتفت فرعون إلى رجاله قائلاً: كالمتعجب المستخف المكذب لقوله الحق: {أَلا تَسْتَمِعُونَ}؟ وشعر موسى بمكر فرعون واستهتار بموقفه منه ورسالته فقال: {رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ }. ولما خاف فرعون على رجاله أن يكون قول موسى الحق قد زلزلهم، وحرك كامن الفطرة في نفوسهم فيكفروا به ويؤمنوا بالله وحده قال في أسلوب ماكر مضلل تنفيراً لقلوب م لائه من قول موسى حتى لا يعتبروه ويعتدوا به: {إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ}.

وأراد اللعين بهذا الجواب أن يرمي برجاله في الخصومة ليتحملوا معه عبء المعركة فقال : {إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ }.فأثار بذلك غضبهم وأجج النار حميتهم، بعد أن أظهر نفسه في مظهر المترفع في مستوى لا يصل إليه أحد فيرسل إليه أو يخاطبه بغير إجلاله وإكباره. وعرف موسى هذا فرد عليهم بقوله الأول الذي أزعجهم وزلزل الأرض من تحت أقدامهم: {رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ }. فأعلمهم أن الذي أرسله هو رب كل شيء وليس ورب آبائهم الأولين فقط، ولوح لهم بأن هذه الحقيقة يدركها كل من يعقل، إذ كل الكون حادث مفتقر إلى محدث له، فرب العالمين

ورب السماوات والأرض وما بينهما أي خالق ذلك ومالكه والمدبر له هو الذي أرسل موسى وهارون إلى فرعون وملئه برسالة الحق.

وأدرك فرعون قوة الحجة التي أدلى بها موسى، وأنها لا تقاوم بحال فلاذ العين بالتهديد والوعيد حفاظاً على موقفه المنهار، وإبقاء على سلطانه الذي أخذ يتداعى تحت ضربات الحق الموسوية فقال في صفاقة وعدم حياء لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين. ظاناً أن موسى سيخيفه التهديد والوعيد فيتخلى عن حجاجه قبل أن يفضحه ويهزمه. وعرف موسى هذا فأبى إلا أن يضطره إلى الحوار ليجلله بالخزي والعار فقال له: أولو جئتك بشيء مبين؟ فقال اللعين مضطراً إلى ترك ا لإنسحاب من الميدان:{فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ}.

علمه وتواضعه :

وعن علم الكليم وتواضعه في طلبه نقول: إن موسى عليه السلام آتاه الله حكماً وعلماً كما قال تعالى {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً} شأنه في ذلك شأن سائر الأنبياء المرسلين يعلمهم ربهم علوماً، ويؤتيهم معارف ما يصبحون بها أهلاً لهداية الناس وإصلاحهم. بيد أن لموسى عليه السلام ميزة خاصة به في رغبته في العلم وا لإستزادة منه، يدلك على ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم في صحيحي الحاكم وابن حبان: " قال موسى يا رب علمني شيئاً أذكرك وأدعوك به. قال: قل لا إله إلا الله، قال يا رب كل عبادك يقولون هذا الحديث... " ففي هذه الرواية الصحيحة تطلع كبير من موسى عليه السلام إلى المزيد من العلم والمعرفة، ورغبة أكيدة في طلب العلم والتقوى فيه، وقد بلغ موسى من العلم مبلغاً جعله لا يرى بين الناس من هو أعلم منه يدل لذلك رواية البخاري، والتي فيها قول الرسول صلى الله عليه وسلم: " بينما موسى في ملأ من بني إسرائيل إذ جاءه رجل فقال: أتعلم أحداً أعلم منك؟ قال موسى: لا. فأوحى الله عز وجل إلى موسى: بلى، عبدنا خضر، فسأل السبيل إلى لقياه ".

ويدل على علم موسى عليه السلام وتبريزه فيه كراهيته للجهل أيضاً وتنديده بالجاهلين. فإنه لما قال لبني إسرائيل قومه {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً} وردوا عليه قائلين: {أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً}؟ قال: {أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ}، إذ لا يقف مثل هذا الموقف إلا جاهل، كما أنه لما طلب إليه قومه[9] أن يجعل لهم إلهاً يعبدونه، رد عليهم فوراً قائلاً: {إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ}. ففي الأولى استعاذ موسى من الجهل، وفي الثانية ندد به ونسب إليه كل انحراف في العقيدة وهو كذلك فإن سائر المعاصي والذنوب التي يغشاها الناس ناجمة عن الجهل بالله تعالى وقواعد دينه وأحكام شرعيه، ويشهد لهذه الحقيقة قول الله تعالى: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} فقد خص تعالى العلماء بخشيته ولم يرها لأهل الجهل به وبشرائعه وأحكام

9 كان ذلك لما مروا بأهل قرية يعكفون على أصنام لهم يعبدونها. فقالوا لموسى {اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة} رد عليهم قائلاً:{إنكم قوم تجهلون}..

دينه.

هذا عن علم موسى الواسع، ومعارفه الكبيرة أما عن تواضعه في طلب العلم فحدث لا حرج إذ لولا تواضعه عليه السلام عند الطلب لما حاز قصب السبق في باب العلم، إذ العلم لا يناله إلا المتواضعون في طلبه والحصول عليه ويشهد لهذا قول مجاهد رحمه اللّه تعالى لا يتعلم العلم مستح ولا متكبر ويشهد لتواضع موسى عليه السلام في طلب العلم حادثتان جليلتان. الأولى إقامته مع شعيب عليه السلام عشر سنين، إن ظاهر القضية يبدوا أن موسى ما أقام لدى شعيب يرعى غنمه إلا لعفة نفسه وإشباع بطنه: ولكن القضية في باطنها: إنها إقامة طلب علم وتربية روحية تخرج بعد ها موسى أهلاً لحمل رسالة الحق والخير، فإن العيش في كنف عبد صالح يوجه ويرشده ويعلم ويحلم لأكبر مدرسة يتعلم فيها المتعلمون ويتخرج فيها المتخرجون. إن رضا موسى برعي غنم شعيب ليعيش بجواره ويتلقى العلم منه لضرب من ضروب التواضع في طلب العلم. هذه الأولى والثانية أنه لما قام خطيباً في بني إسرائيل وأعجب به أحد الشباب فسأله قائلاً: أتعلم أحداً أعلم منك يا موسى؟ فقال: لا، وأوحى الله تعالى إليه قوله: بلى، عبدنا خضر. طلب الرحلة إليه وسأل ربه السبيل إلى لقيه. فجعل الله تعالى له آية له تدله عليه، وترشده إلى مكان لقيه. وفعلاً رحل موسى في طلب عبد اللّه ووليه خضر ووجده، ومن خلال ما دار بينهما من حديث تتجلى لنا حقيقة تواضع موسى في طلبه العلم، إذا قال له موسى عليه السلام وهو نبي ورسول وقائد أمة و إمامها: {هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً}؟ فمن سؤاله هذا وهو سؤال تلطف كبير، تظهر حقيقة تواضع موسى في طلب العلم. وإجابة خضر قائلاً: {إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً} . لأني على علم مما علمني الله، وأنت على علم مما علمك الله، وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً، أجاب موسى في تواضع تام: {قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِراً وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْراً} . ففي قوله عليه السلام ستجدني إن شاء اللّه من الصابرين تلطف كبير واستعطاف عظيم لعبد الله خضر في أن يسمح له بالسير معه والطلب عنه وفي قوله: {وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْراً} من التواضع في طلب العلم مالا يقادر قد ره، ولا يعرف كنه حقيقة إلا ذو البصيرة في هذا الشأن.

ونزيد حقيقة تواضع موسى في طلب العلم وضوحاً فنقول: إن نبياً نجياً مكلماً قائداً مسؤولاً عن أمة بكاملها يذكر له أن عبداً من عباد الله أعلم منه فيتخلى على الفور عن كل مهامه وشرف منصبه، ويطلب الرحلة إلى من هو أعلم منه ليتعلم عن ه ويتحمل المشاق الصعاب في سبيل لقيه فإذا لقيه تواضع له إلى حد أن قال لي: إني لا أعصي لك أمراً، إذ لازم هذا القول أنه لو أمره بأعظم الأمور وأشقها على النفس لما تردد في القيام بها طاعة لأستاذه وتواضعاً منه في طلب العلم وهكذا يكون طلب العلم وهكذا يكون طلابه....

إخلاصه وتوكله:

وعن إخلاص الكليم وتوكله نقول: إن الإخلاص وهو إرادة الله تعالى بكل النيات والأقوال والأعمال بحيث لا يلتفت العبد في نيته أو قوله، أو عمله إلى أحد من الناس، هذا الإخلاص هو أساس الدين، وقوامه قال تعالى:{وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} . قال: {فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ. أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ}. وأجدر الناس بهذا وأحقهم به أنبياء الله ورسله، وذلك لكمال معرفتهم بالله تعالى وقوة صلتهم به عز وجل. وأنبياء الله تعالى ورسله قد يتفاوتون في صفات الكمال الذي آتاهم ربهم، فيكون لأحد هم صفة يشاركه فيها كل الأنبياء والرسل غير أنه يكون فيها أكمل من غيره فتغلب تلك الصفة عليه فيعرف بها، وليس معنى ذلك أن إخوانه من الأنبياء والمرسلين ليسوا موصوفين بها وإنما برزوا فيها فقط فغلبت عليه فذكر بها، ومن ذلك صفة الإخلاص فقد وصف اللّه تعالى بها نبيه موسى بقوله من سورة مريم {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً}[10].فوصفه بالإخلاص وهو وصف لم يذكره لغيره من سائر المرسلين إلا ما كان من يوسف عليه السلام إذ قالت فيه:{إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ} وذلك لتجلى هذه الصفة في موسى وغلبتها عليه في سائر إراداته وأقواله وأعماله، ولنا أن نلحظ ذلك بوضوح في مثل قوله تعالى حكاية عنه عليه السلام: {رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ} . فان دعاؤه ربه تعالى على فرعون وآله بالطمس على أموالهم، والشد على قلوبهم، والمراد من الطمس على أموالهم إما أن تكون حجارة، وإما أن تذهب في الأرض– وتغور فيها فلا يعثر عليها، والمعنى الأول وارد عن السلف، إذ قيل عثر في ديارهم على كيس فيه حمص وبيض قد حول حجاره. وأما الشد على قلوبهم فأنه الطبع عليها والختم لأنها ما أصبحت مرجوة للإيمان، وهذا كقول نوح عليه السلام {رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلا فَاجِراً كَفَّاراً}.

قلل ابن كثير رحمه الله تعالى: " وهذه الدعوة كانت من موسى عليه السلام غضباً لله ولدينه على فرعون وملئه ". أقول ومثل هذا لا يكون إلا من قوة الإخلاص الذي عرف به الكليم عليه السلام.

وفي مثل قوله:{قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهاً وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ} . قال هذا لقومه بعد أن طلبوا إليه أن يجعل لهم صنماً يعبدونه، إذ مروا بقوم يعكفون على أصنام لهم، فاستهواهم ذلك المنظر، وأثر في نفوسهم المريضة فطلبوا بأن يكون لهم إلهاً كما لأولئك المشركين آلهة، ونسوا اللّه تعالى وقد نجاهم من عدوهم، فلما قالوا ذلك غضب موسى عليهم وصاح في وجوههم قائلاً: {إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ}، إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون قال أغير الله أبغيكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين، فغضبه عليه

---

10 قرء في السبع مخلصا ً بفتح اللام أيضاً ً، وهو من الإصطفاء لا من الإخلاص.

السلام وشدة إنكاره على قومه ما أرادوه من الشرك مظهر كبير من مظاهر إخلاص موسى وقوته في ذلك.

هذا وتوكل موسى على اللّه تعالى في كل شأنه ظاهرة قوية في حياة موسى عليه السلام، وصفة بارز ة في حياته غالية عليها: إن خروجه من أرض مصر وحيداً وهو شاب عاش في الترف وتربى في النعيم فلولا توكله على ربه لما هاجر تلك الهجرة التي لم يتوفر لها سبب واحد من أسبابها سوى توكله على ربه عز وجل وتعاقده مع شعيب في ديار الغربة يقيم عشر حجج يرعى فيها الغنم ويطلب العلم، ويتربى فيها على الكمالات النفسية مظهر من مظاهر التوكل القوي عند موسى عليه السلام.

وخروجه بأسرته من أرض مدين عائداً إلى مصر حيث خرج منها خائفاً من آل فرعون وهم يطلبونه بالنفس التي قتلها مظهر عظيم من مظاهر توكل الكليم، وإلا كيف يعود إلى بلاد أهلها يطالبونه بدم لهم عليه يريدون أن يقتلوه به لولا التوكل الذي غلب على النفس فحجب منها كل ما عداه.

ولا يقولن قائل: إن طلب موسى من ربه أن يزوده بما يكون له عوناً على أداء رسالته إلى فرعون وملئه حيث طلب من ربه أن يشرح له صدره وييسر له أمره ويحلل عقدة من لسانه وأن يجعل له وزيراً من أهله وهو هارون عليه السلام، لا يقولن قائل أن هذا قادح في كمال التوكل عند موسى، لأن الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل ولا يكون قادحاً فيه بحال، كما أن الخوف مما من شأنه أنه يخاف منه لا يقدح في شجاعة المرء وبطولة البطل، هذا أمر معلوم لدى العالمين، لا يرتاب فيه ولا يخاصم عليه ومما يحكى لنا صفة التوكل القوية لدى موسى عليه السلام. مطالبته قومه بالتوكل على الله تعالى في غير موطن. من ذلك قوله: يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين، فقالوا على اللّه توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ونجنا برحمتك من القوم الكافرين، فإنه عليه السلام لغلبة هذا الوصف عليه ولكثرة ما انتفع به أصبح يراه خير معين لقومه على اقتحام المشاق، وتحمل الصعاب، كما لا يرى إيماناً وإسلاماً بدون توكل على الله تعالى وحده، وهو كذلك فإن من آمن باللّه تعالى رباً كافياً وإلهاً حقاً أسلم له وجهه وقلبه لا يسعه أن لا يتوكل عليه بحال من الأحوال.

إذ التوكل: ا لإعتماد على ذي الكفاية من العلم والقدرة والحكمة وتفويض الأمر إليه، وسكون النفس إلى كفايته، وعدم تغلب القلب فيما هو فاعله. هذا هو التوكل مع قيد أن ما كان من الأمور المتوكل فيها مما وضع الله تعالى له الأسباب لتحصله، أو للنجاة منه، فان التوكل لا يتم إلا إذا أحضر العبد تلك الأسباب ووفرها إن كان ذلك في استطاعته. وما لم يكن منها مستطاعاً له فلا يكلف به ولا يسأل عنه أو يحاسب عليه.

وأخيراً فإن صفات الكمال التي ذكرنا لموسى عليه السلام من البلاء والصبر، والنجدة والعفة والقوة والأمانة، والشجاعة وقوة الحجة والعلم والتواضع فيه والإخلاص والتوكل ليس المراد أنا نثبتها له عليه السلام، لأن من الناس من شك في ثبوتها له، أو حاول نفيها عنه فذكرناها نحن مقررين لها يعد إقامة

الدليل على ثبوتها، وإنما القصد من ذكرنا أن يأتسي به فيها دعاة الإصلاح اليوم فتكمل لشخصيتهم كما لا تصبح به ذات تأثير على من يدعونهم إلى الله تعالى ليوحدوه ويطيعوه فيتهيئوا بذلك لسعادة الدارين، بعد النجاة من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

ومن هنا وجب على الداعي أن يستعرض هذه الصفات ويوطن النفس على محاولة ا لإتصاف بها، فيكون له خلق الشجاعة والنجدة والعفة والصبر والتوكل والتواضع في طلب العلم، وذلك برياضة نفسه علي ذلك وأخذها به شيئاً فشيئاً حتى تصبح هذه الفضائل صفات ثابتة لها فان أغلب الفضائل النفسية مكتسبة يحصل عليها المرء بالرياضة وا لإجتهاد، ولكل مجتهد نصيب. هذا وسلام على محمد في المرسلين وسلام على موسى في العالمين. والحمد لله رب العالمين.

عيسى ابن مريم عليه السلام:

من نماذج الدعاة الصالحين في معارض الكمال البشري عبد الله ورسوله عيسى بن مريم عليه السلام وهو رابع أولي العزم من الرسل، وخاتمة سلسلة النبوة في بني إسرائيل، وطلبنا لوجوه ا لإئتساء وصالح القدوة في عظماء الرجال من دعاة الحق الصالحين نستعرض حياة هذا النبي الكريم والرسول الطاهر الرحيم علناً نكتسب من ذلك الكمال الذي أوتيه عليه السلام بعض ما نكمل في أخلاقنا وأرواحنا، لنقوى على أداء واجب الدعوة التي حملناها على ضعفنا وقلة مؤهلاتنا العلمية والنفسية.

وقبل استعراضنا لمظاهر الكمال في حياة هذا الرسول الكريم نترجم له بالجمل الآتية: فنقول: عيسى عليه السلام هو عبد الله ورسوله وكلمة اللّه التي ألقاها إلى مريم، واسم عيسى معرب عن ايشع ومعناه السيد أو المبارك ووالدته مريم بنت عمران من صلحاء بني إسرائيل ومعنى مريم بالعبرية الخادم أو خادمة الله. ويحمل هذا الإسم معنى المرأة التي لا تقدر على مقابلة الرجال وا لإختلاط بهم كما روى أن النبي صلى اللّه عليه وسلم سأل فاطمة رضي الله عنها عن أحب شيء إلى المرأة. فقالت: أن لا ترى الرجال وأن لا يراها الرجال. فرد عليها صلى اللّه عليه وسلم قائلاً– وقد ضمها إلى صدره: "ذرية بعضها من بعض". وهي إشارة إلى قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}.

حلمت به والدته بنفخة من روح القدس. نفخها في كمها فسرت إلى فرجها ، فكان عيسى عليه السلام بكلمة التكوين كما قال تعالى: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}. فلذا لقبه رسول الله صلى الله عليه وسلم بكلمة الله في قوله: " من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها[11] إلى مريم وروح

---

11 متفق عليه .

منه، والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل " . كما كان يلقب بروح الله فيناد ى بذلك فيجيب، وذلك لأن النفخة كانت من جبريل بأمر الله تعالى، ويشهد له قوله تعالى: {الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا} . وقوله تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ} .

ولدته الصديقة أمه البتول بقرية بيت لحم من فلسطين. وحفت ولادته آيات عجيبة أظهرها تكلمه في المهد حيث قال: {قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً , وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً , وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً , وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً}. وقد أعلمت بهذا والدته عليها السلام ساعة أن بشرها الملك بذلك إذ قالت الملائكة: {يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ , وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ}. وعاش عيسى عليه السلام بين بني إسرائيل مع والدته ولاقى هو ووالدته من صنوف الأذى ما صرح به القرآن في غير آية منه: فقد بهتوا والدته ورموها بما هي منه براء واتهموه عليه السلام بالسحر، وكذبوه في رسالته إليهم، وآخر الأمر عزموا على قتله وطوقوا منزله بشرطهم واقتحموا عليه المنزل غير أن الله تعالى خيب أملهم وأضل سعيهم فألقى الشبه على رجل منهم فظنوه هو فصلبوه، وما قتلوا عيسى وما صلبوه بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً ورفع عليه السلام إلى السماء وعمره ثلاث وثلاثون سنة وسينزل في آخر أيام هذه الحياة ويتمم بقية عمره على هذه الأرض فيعيش أربعين سنة يقضيها إماماً عدلاً يكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية كما جاء ذلك في صحاح الأحاديث. فسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويم يبعث حياً.

هذا ومظاهر الكمال التي نريد استعراضها في حياته عليه السلام هي: الطهارة، والزهد، والحكمة وكمال اليقين.

طهارته عليه السلام:

وعن طهارة المسيح عيسى بن مريم نقول: إن الطهارة الروحية ضرورية لتلقى الوحي الإلهي من الواسطة في ذلك وهم الملائكة عليهم السلام، ومن هنا كان كل الأنبياء إظهار الأرواح أزكياء النفوس معصومين من فعل كل ما يلوث الروح ويخبث النفس. بيد أن ابن مريم عليه السلام قد بلغ في هذا الش أن مستوى رفيعاً جداً تميز به بين إخوانه الأنبياء والمرسلين. ويشهد لذلك ثلاثة أمور:

الأول: إن الشيطان لم يقربه أبداً، ذلك لاستجابة الله تعالى لجدته حنة في دعائها،إذ قالت لما ولدت مريم: {رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} فاستجاب الرب تبارك وتعالى لها، وحفظ مريم وولدها

عيسى عليه السلام من الشيطان. وفي هذا المعنى يقول الرسول الكريم نبينا محمد صلى اللّه عليه وسلم: "ما من مولود يولد إلا مسه الشيطان حين يولد فيستهل صارخاً من مسه إياه. إلا مريم وابنها "، ثم يقول أبو هريرة راوي الخبر : اقرءوا إن شئتم: {وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} . أخرجه الشيخان البخاري ومسلم وإذا حفظ وهو صبي فحفظه وهو كبير يستعيذ بر به من الشيطان ويقدر على لعن الشيطان ومخالفته فيما يدعوه إليه أولى وآكد. رو ي أنه عليه السلام نام يوماً على الأرض بدون فراش وتوسد حجراً ونام فوجد لذة النوم. فجاءه إبليس عليه لعائن الله وقال له: يا عيسى ألست تزعم أنك لا تريد شيئاً من عرض الدنيا، فهذا الحجر من عرض الدنيا، فقام فأخذ الحجر ورمى به إليه،وقال: هذا لك مع الدنيا.

الثاني: أنه عليه السلام لما انتهت إليه البشرية تطلب إليه أن يشفع لها عند الله عز وجل ليفصل بها في عرصات القيامة وقد طال بها الموقف ، واشتد بها الحال، وغضب الرب عز وجل غضباً لم يغضب قبله ولا بعده مثله، فلم يذكر عيسى عليه السلام عند اعتذاره لها ذنباً، كما ذكر ذلك آدم،ونوح وإبراهيم وموسى عليهم السلام وعلى نبينا الصلاة والسلام أثبت هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث الشفاعة في صحيح مسلم. وبهذا علم أن عيسى عليه السلام كان من أطهر الناس روحاً وأزكاهم نفساً، وأكثرهم زهداً وأقواهم يقيناً، وسنذكو شواهد لذلك فيها يلي.

الثالث: أن اللّه تعالى أيده بروح القدس يسدده ويعينه ويدفع عنه فكان جبريل عليه السلام لا يكاد يفارقه فترة حياته كلها حتى رفعه الله تعالى إليه. فمصاحبة جبريل عليه السلام له في أغلب أحواله من شأنها أن تزيد في صفاء روحه عليه السلام وزكاة نفسه لما في ذلك من البركة والعصمة، إذ ما زالت مجالسة الصالحين والحياة معهم حصناً منيعاً للعبدلا يقربه معه شيطان ولا يغشى فيه إثماً أو قطيعة.

ويشهد لهذه الحقيقة وهي أن مجالسة الصالحين من الملائكة ومن الناس من شأنها أن تزيد في طهارة الروح وزكاة النفس ما ثبت عن النبي صلى الله عليه كان أجود الناس بالخير، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل عليه السلام – وكان جبريل عليه السلام يلقاه كل ليلة في رمضان حتى ينسلخ يعرضه عليه النبي صلى اللّه عليه وسلم القرآن. فإذا لقيه عليه السلام كان أجود بالخير من الريح المرسلة.

ووجه الإئتساء في هذا الضرب من الكمال الروحي هو أن يعمل الداعي الناشئ على تزكية نفسه وتطهير روحه بفعل ما يزك ي النفس ويطهرها من الإيمان والعمل الصالح. وبإبعادها عن كل ما يدنسها ويلوثها من الشرك والمعاصي مستعيناً في ذلك باللّه تعالى ثم بمجالسة الصالحين من عباد اللّه المؤمنين، إذ طهارة روح– الداعي ضرورية للتأثير على نفوس المدعوين إلى الله تعالى وحملهم على طاعته والإنابة إليه والتوكل عليه.

زه ده عليه السلام:

وعن زهد عيسى عبد الله ورسوله نقول: إذا كان هو احـ ـتقار الدنيا وعدم الرغبة في حطامها، والتقليل من متاعها إلا بقدر البلاغ، والعزوف عما يتكالب عليه أبناء الدنيا من جمع المال وا لإنغماس في الملاذ والشهوات الجثمانية البهيمية، مع الرغبة الملحة فيما عند الله تعالى، والسعي الحثيث المتواصل إلى ذلك باليقين والعبادة والتوكل. إذا كان هذا هو الزهد المطلوب للكمال البشري والمتعين لأن يكون وصفاً لازماً لدعاة الحق والخير من كمال البشر وسادات الناس، فان المسيح عيسى بن مريم عليه السلام كان مضرب المثل في هذا الباب، بحيث لم يزهد زهده أحد ممن سبقه أو تأخر عنه باستثناء خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم. وها هي ذي آثار مروية في زهد المسيح عليه السلام في الدنيا نوردها شواهد حق على زهده عليه السلام، ونماذج كمال ل لإقتداء به عليه السلام فيها، وموعظة وذكرى للذاكرين ومن هذه الآثار ما روي أنه قال للحواريين: " يا معشر الحواريين ارضوا بدني الدنيا مع سلامة الدين، كما رضي أهل الدنيا بدني الدين مع سلامة الدنيا ". وصاغ هذا المعنى أحد الحكماء في بيتين من الشعر فقال:

أرى رجالاً بأدنى الدين قد قنعوا   ولا أراهم رضوا في العيش بالدون
فاستغن بالدين عن دنيا الملوك كما   استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

كما روي أنه قال لحوارييه :" وبحق أقول لكم من طلب الفردوس فخبز الشعير والنوم في المزابل مع الكلاب كثير ". وقال:" يا معشر الحواريين اجعلوا كنوزكم في السماء، فإن قلب الرجل حيث كنزه ". وروي أنه عليه السلام خرج على أصحابه وعليه جبة صوف، كساء وتبان حافي ـاً باكياً شعثاً مصفر اللون من الجوع، يابس الشفتين من العطش فقال:" السلام عليكم يا بني إسرائيل أنا الذي أنزلت الدنيا منزلتها بإذن الله، ولا عجب ولا فخر، أتدرون أين بيتي؟ قالوا : أين بيتك يا روح الله؟ قال : بيتي المساجد، وطيبي الماء، وأدامي الجوع، وسراجي القمر بالليل.... وشعاري خوف رب العزة، وجلسائي الزمنى والمساكين، أصبح وليس لي شيء، وأمسى وليس لي شيء، وأنا طيب النفس غير مكترث، فمن أغنى مني وأربح؟ " .[12]

وثمرة معرفة هذا الجانب من حيا ة عيسى عليه السلام هي أن يحرص الداعي الناشئ على اكتساب خلق الزهد والتحلي به بين الناس فان الداعي متى زهد في الدنيا ورغب في الآخرة، ورأى الناس ذلك منه مالوا إليه، وأقبلوا عليه، وبذلك يسهل عليه تعليمهم وهدايتهم وإصلاحهم.

حكمته عليه السلام:

وعن حكمة عيسى نبي اللّه ورسوله عليه السلام نقول: إذا كانت الحكمة هي السداد والإصابة في الأمور، أو هي وضع الأشياء في مواضعها اللائقة بها، كما هي الحلم والعلم والفقه في دين الله تعالى ومعرفة أسرار لشرعه فإن عيسى عليه السلام كان عالماً حليماً ذا أصابة وسداد فيما يقول ويعمل، ينطق بالحكمة

---

12 كل ما أوردناه من الآثار المتعلقة بحياة نبي الله تعالى عيسى عليه السلام هو من البداية لابن كثير.

ويعلمها، روي أن امرأة من عجائز بيت لحم بعثت إليه بطفلها يقول له : إن أمي تطلب منك إبرة. فكأنه عليه السلام استهجن هذه الطلبة ولم يكن يملك الإبرة فقال للغلام : أطلب تجد، فعاد الغلام إلى أمه وأخبرها بما قال له السيد المسيح فجأته تعتب عليه ردها خائباً، فقال لها عليه السلام : إني أعطيت ولدك حكمة وهي خير من إبرة، فقلت له أطلب تجد. ولم يكن لدي إبرة فأعطيها إياه فسكت غضب المرأة، وندمت على عتابها !!!

وروي أنه كان يقول للحواريين: "كما ترك لكم الملوك الحكمة فاتركوا لهم الدنيا ". كأنه يعني بالحكمة علم الشرع والعمل به، الإهتداء بهديه.

وروي أنه قال للحواريين :" لا تحدثوا بالحكمة غير أهلها فتظلموا، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم. والأمور ثلاثة، أمر بين رشده فاتبعوه، وأمر بين غيه فاجتنبوه وأمر اختلف عليكم فيه فردوا علمه إلى اللّه عز وجل ". وقال لأصحابه يوماً: " أنتم ملح الأرض فإذا فسدتم فلا دواء لكم وأن فيكم خصلتين من الجهل: الضحك من غير عجب والصبحة من غير سهر ". يريد بالصبحة النوم بعد صلاة الصبح.

ومن حكمه عليه السلام قوله: " حب الدنيا رأس كل خطيئة، والنظر يزرع في القلب الشهوة، ورب شهوة أورثت صاحبها حزناً طويلاً ". وكان يقول: " طالب الدنيا مثل شارب ماء البحر كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً حتى يقتله "، وكان يقول: " لا يستقيم حب الدنيا وحب الآخرة في قلب مؤمن ، كما لا يستقيم الماء والنار في إناء ". وقالت له امرأة يوماً :" طوبى لحجر حملك ولثدى أرضعك !!. فقال : طوبى لمن قرأ كتاب الله واتبعه ". [13]

هذه بعض ما أثرى من حكمه عليه السلام، والقصد من إيرادها الإشارة إلى ك مال عيسى عليه السلام في هذا الباب، وندب الداعي إلى اللّه تعالى إلى أن– يتعلم الحكمة ويعمل بها حتى يصبح من أهلها.

ويورث الحكمة شيئان: العمل بالكتاب والسنة، وكثرة الصمت، لأن العمل بالكتاب والسنة يعصم من الخطأ في العمل والحكم، وكثرة الصمت يعصم من الخطأ في القول والتقدير. وقديماً قال لقمان عليه السلام:" الصمت حكمة وقليل فاعله ".

كمال يقينه عليه السلام :

وعن كمال يقين عيسى عليه السلام نقول فقد رو ي " أن الحواريين فقدوا يوماً نبيهم عيسى عليه السلام فسألوا عنه، فقيل لهم أنه توجه نحو البحر، فانطلقوا يطلبونه هناك، فلما انتهوا إلى البحر، وجدوه عليه السلام على الماء يرفعه الموج مرة ويضعه أخرى وعليه كساء قد ارتدى بنصفه، واتزر بنصفه الآخر.

---

13 هذه الرواية لم تكن من البداية .

فلما قرب منهم قال له بعضهم ولعله أفضلهم: أجيء إليك يا نبي الله؟ فقال بلى، فوضع الرجل إحدى رجليه في الماء، ثم ذهب ليضع الأخرى، فقال: أوه، غرقت يا نبي الله، فقال له عيسى عليه السلام : أرني يدك يا قصير الإيمان، لو أن لابن آدم من اليقين قدر شعيرة مشى على الماء ".

وقيل له عليه السلام يوماً " بأي شيء تمشي على الماء؟ فقال: بالإيمان واليقين، فقالوا: أنا آمنا كما آمنت وأيقنا كما أيقنت، قال : فامشوا إذاً، فمشوا معه في الموج فغرقوا، فقال لهم: مالكم؟ فقالوا : خفنا الموج، قال: ألا خفتم رب الموج ! فأخرجهم، ثم ضرب بيده إلى الأرض فقبض بها، ثم بسطها، فإذا في إحدى يديه ذهب، وفي الأخرى مدر أو حصى، فقال : أيهما أحلى في قلوبكم؟ قالوا : هذا الذهب. قال: فإنهما عندي سواء ".

هذه صورة واضحة من كمال يقين عيسى عليه السلام أبرزناها للداعي الناشئ ليتصورها دائماً في نفسه ويتمثلها في حياته فتكون عوناً له على تقوية صبره وكمال يقينه، إذ حاجته إلى الصبر واليقين في باب الدعوة أشد من حاجته إلى غيرهما من أسباب نجاح الدعوة، وعوامل فوزه فيها، قال تعالى: **{وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ}** . ومن هنا قيل بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين ...